



Linguistic Variation in the Prophetic Discourse of the Qur'an: A Study in the Light of Communication Accommodation Theory

Asst. Instr. Malik Tughwan Adhaef Al-Qurashi

General Directorate of Education in Wasit / The Open Educational College / Wasit Study Center

malikdaeif@uowasit.edu.iq

07732166460

Received Jun.7, 2026

Revised Jul.13, 2026

Accepted Jul 27, 2026

Online October1, 2026

ABSTRACT

This study seeks to examine the linguistic dynamism and stylistic shifts in prophetic discourse (peace be upon them) through the application of Communication Accommodation Theory (CAT), adopting a descriptive-analytical approach supported by pragmatic analysis tools. The study has yielded a number of pivotal findings, most notably :

- Convergence Strategy: The prophets deliberately bridged the communicative gap with their audiences by employing the vernacular of their people, drawing contextually relevant parables, and accommodating the cognitive capacities of their addressees to foster trust and achieve psychological harmony.

- Divergence Strategy: This strategy was clearly manifested in contexts of argumentation and admonition, where prophetic discourse deliberately underscored value-based and cognitive disparities to assert the authority of the divine message and affirm an independent faith-based identity. This is evident in vocative expressions such as "O my people," "O my son," and "O my father," where emotional endearment intersected with a revelation-based cognitive divergence.

- Flexibility of the Prophetic Lexicon: The study revealed that the alternation between literal and figurative language, and between gentle speech and decisive declaration, was not spontaneous but rather a deliberate act of accommodation, governed by the exigencies of the prophetic mission and the demands of context. The study concludes by recommending the integration of modern linguistic mechanisms to interrogate the sacred text—the Holy Quran—through contemporary linguistic tools, thereby illuminating the psychological and social dimensions of miraculousness (i'jaz) in Islamic heritage.

Keywords: Linguistic Variations, Prophetic Discourse, Communication Accommodation Theory (CAT), Linguistic Convergence and Divergence.

التنوّيعات اللّغويّة القرآنيّة في خطاب الأنبياء: دراسة في ضوء نظريّة التّكيف التّواصليّ

م.م. مالك طغوان اذاعف

المديريّة العامّة لتربيّة واسط / الكلية التّربويّة المفتوحة / مركز واسط الدّراسيّ

malikdaeif@uowasit.edu.iq

07732166460

المخلص

تسعى هذه الدراسة إلى رصد الديناميكية اللغوية والفقرات الأسلوبية في خطاب الأنبياء (عليهم السلام) عبر تطبيق نظرية التكيف التواصلي (CAT)، بالاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي المدعوم بأدوات التحليل الدأولي. وقد تمخضت الدراسة عن جملة من النتائج المحورية، أبرزها:

ي استراتيجيّة التقارب (Convergence): إذ عمد الأنبياء إلى جسّر الفجوة مع المتلقّي عبر لغة القوم، وضرب الأمثال البيئية،

رَاعَاةَ الْقُدْرَاتِ الْإِدْرَاكِيَّةِ لِلْمُخَاطَبِينَ لِكَسْبِ الثِّقَةِ وَتَحْقِيقِ الْوُثَامِ النَّفْسِيِّ.

لِاسْتِثْنَائِيَّةِ التَّبَاعِدِ: (Divergence) وَقَدْ ظَهَرَتْ جَلِيَّةً فِي مَقَامَاتِ الْمَحَاجَةِ وَالْإِنْذَارِ؛ إِذْ تَعَمَّدَ الْخُطَابُ النَّبَوِيُّ إِبْرَارَ الْفَوَاقِ مِيَّةً وَالْمَعْرِفِيَّةَ لِفَرْضِ السُّلْطَةِ الرَّسَالِيَّةِ وَتَأْكِيدِ الْهُوِيَّةِ الْإِيمَانِيَّةِ الْمُسْتَقْلَةِ، كَمَا فِي نِدَاءَاتِ: (يَا قَوْمُ، يَا بُنَيَّ، يَا أَبْتَ)، إِذْ تَصَادَمَ التَّوَدُّدُ طَفِيًّا مَعَ التَّبَاعِدِ الْمَعْرِفِيِّ الْقَائِمِ عَلَى الْوَحْيِ.

بِنَةِ الْمُعْجَمِ النَّبَوِيِّ: (The flexibility of the Prophetic lexicon) تَبَيَّنَ أَنَّ التَّنَوُّعَ بَيْنَ الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ، وَبَيْنَ الْقَوْلِ وَالْبَيَانِ الْحَاسِمِ، لَمْ يَكُنْ عَفْوِيًّا بَلْ تَكْيِيفًا مَفْصُودًا يَدُورُ مَعَ عِلَّةِ الْحَاجَةِ الدَّعْوِيَّةِ وَمُقْتَضِيَّاتِ السِّيَاقِ. تُوصِي الدِّرَاسَةُ فِي نَهَائِهَا زُورَةَ اسْتِثْنَائِيَّةِ الْإِلْيَافِ الْإِيمَانِيَّةِ الْحَدِيثَةِ لِاسْتِثْنَائِيَّةِ النَّصِّ الْمُقَدَّسِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِأَدْوَاتٍ لِسَانِيَّةٍ حَدِيثَةٍ، لِإِبْرَارِ وَجْهِهِ الْإِعْجَازِ النَّفْسِيِّ الْجَمَاعِيِّ فِي ثَرَاتِنَا الْإِسْلَامِيِّ.

الكلمات المفتاحية: التَّنَوُّعَاتُ اللَّغَوِيَّةُ، الْخُطَابُ النَّبَوِيُّ، نَظَرِيَّةُ التَّكْيِيفِ التَّوَاصُلِيِّ (CAT)، التَّقَارُبُ وَالتَّبَاعُدُ اللَّغَوِيُّ..

المقدمة:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ نَبِيًّا لِكُلِّ شَيْءٍ، وَجَعَلَ مِنْ لِسَانِ الْأَنْبِيَاءِ مِيزَانًا لِلْحِكْمَةِ وَقَصْلًا لِلْخُطَابِ، وَالصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَى مَنْ أُوتِيَ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَعَلَى إِخْوَانِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ الَّذِينَ حَمَلُوا مَشَاعِلَ الْهَدَايَةِ بَيَانٍ عَجَزَتْ عَنْ مَلَاحِظَتِهِ لُغَاتُ الْبَشَرِ، وَبَعْدُ:

يُعَدُّ الْخُطَابُ النَّبَوِيُّ فِي جَوْهَرِهِ ظَاهِرَةً تَوَاصُلِيَّةً فَرِيدَةً، فَهُوَ لَا يَمِثُلُ مَجْرَدَ نَقْلِ لِمَعْلُومَاتٍ غَيْبِيَّةٍ أَوْ أَحْكَامٍ تَشْرِيعِيَّةٍ، بَلْ هُوَ فِعْلٌ تَوَاصَلٍ إِنْسَانِيٍّ بِمَرَجِعِيَّةٍ إِلَهِيَّةٍ، يَهْدَفُ إِلَى إِحْدَاثِ تَغْيِيرٍ جَذْرِيٍّ فِي الْبُنَى الْفِكْرِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ لِلْمُتَلَقِّينَ. وَمِنْ هُنَا، تَبَرُّزُ إِشْكَالِيَّةِ الْبَحْثِ فِي كَيْفِيَّةِ إِدَارَةِ الْأَنْبِيَاءِ (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) لِعَمَلِيَّةِ التَّوَاصُلِ مَعَ أَقْوَامِهِمْ؛ فَالْمُتَلَقِّيُّ فِي الْخُطَابِ النَّبَوِيِّ لَيْسَ كِتْلَةً وَاحِدَةً، بَلْ هُوَ طَيْفٌ وَاسِعٌ يَمْتَدُّ مِنَ الْمُؤْمِنِ الْمَطِيعِ إِلَى الْجَاوِدِ الْمُسْتَكْبِرِ، وَمِنَ الْمَلِكِ الطَّاعِيَةِ إِلَى الْفَقِيرِ الْمُسْتَضْعَفِ. إِنَّ هَذَا التَّنَوُّعَ فِي الْجُمْهُورِ الْمُسْتَهْدَفِ حَتَمًا عَلَى الْخُطَابِ النَّبَوِيِّ اسْتِخْدَامَ اسْتِرَاطِيَّاتٍ لِسَانِيَّةٍ ذَكِيَّةٍ، وَهُوَ مَا تُطْلَقُ عَلَيْهِ اللِّسَانِيَّاتُ الْحَدِيثَةُ التَّنَوُّعَاتُ اللَّغَوِيَّةُ. وَفِي مُحَاوَلَةٍ لِفَهْمِ هَذِهِ الْحَرَكِيَّةِ، يَأْتِي هَذَا الْبَحْثُ لِيُدرَسَ خُطَابَ الْأَنْبِيَاءِ فِي ضَوْءِ نَظَرِيَّةِ التَّكْيِيفِ التَّوَاصُلِيِّ (Communication Accommodation Theory)، وَهِيَ نَظَرِيَّةٌ لِسَانِيَّةٌ نَفْسِيَّةٌ تَسْعَى لِنَفْسِيرِ الْكَيْفِيَّةِ الَّتِي يُعَدِّلُ بِهَا الْمُتَحَدِّثُونَ لُغَتَهُمْ وَأَسْلُوبَهُمْ (تَقَارُبًا أَوْ تَبَاعُدًا) لِتَحْقِيقِ أَهْدَافِ تَوَاصُلِيَّةٍ مُحَدَّدَةٍ، كَسَبِ الثِّقَةِ، أَوْ تَأْكِيدِ الْهُوِيَّةِ، أَوْ فَرْضِ السُّلْطَةِ الْمَعْرِفِيَّةِ. تَكْمُنُ أَهْمِيَّةُ هَذِهِ الدِّرَاسَةِ فِي كَوْنِهَا مُحَاوَلَةً لِلرِّبْطِ بَيْنَ الْمُنْجَزِ اللَّسَانِيِّ الْغَرِبِيِّ الْحَدِيثِ وَبَيْنَ النَّصِّ الْمُقَدَّسِ، لِلْكَشْفِ عَنِ الْإِعْجَازِ التَّوَاصُلِيِّ فِي قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ. فَالتَّنَوُّعُ اللَّغَوِيُّ فِي دَعْوَاتِهِمْ لَمْ يَكُنْ عَفْوِيًّا، بَلْ كَانَ تَكْيِيفًا رَسَالِيًّا يَرَاعِي مُقْتَضَى الْحَالِ النَّفْسِيِّ وَالْاجْتِمَاعِيِّ لِلْمُخَاطَبِ، مِمَّا جَعَلَ مِنْ لُغَتِهِمْ أَدَاءً طَبِيعَةً قَادِرَةً عَلَى اخْتِرَاقِ الْحُجُبِ الثَّقَافِيَّةِ وَالزَّمْنِيَّةِ. وَتَسْعَى الدِّرَاسَةُ مِنْ خِلَالِ مُطَالِبِهَا إِلَى الْإِجَابَةِ عَنِ الْأَسْئَلَةِ الْمَرْكَزِيَّةِ التَّالِيَةِ:

- كَيْفَ تَجَلَّتْ اسْتِرَاطِيَّاتُ التَّقَارُبِ وَالتَّبَاعُدِ اللَّغَوِيِّ فِي حَوَارَاتِ الْأَنْبِيَاءِ مَعَ أَقْوَامِهِمْ؟
- مَا هِيَ الْمَحْزَنَاتُ السِّيَاقِيَّةُ الَّتِي تَدْفَعُ النَّبِيَّ (الْمُتَحَدِّثَ) إِلَى تَغْيِيرِ مُسْتَوَاهُ الْمَعْجَمِيِّ أَوْ نَبْرَتِهِ الْأَسْلُوبِيَّةِ؟
- إِلَى أَيْ مَدَى سَاهَمَ التَّكْيِيفُ التَّوَاصُلِيُّ فِي تَذْلِيلِ عَقَبَاتِ التَّبْلِيغِ وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَى الْمُخَالَفِينَ؟

اعتمدَ البحثُ في مقارنة هذه الإشكالية على المنهج الوصفي التحليلي، مع الاستعانة بأدوات التحليل التداولي، وذلك لاستنطاق النصوص القرآنية التي عرضت لخطاب الأنبياء، وتحليل القفزات الأسلوبية التي مارسها الأنبياء في مواقفهم المختلفة. نرجو أن تساهم هذه الدراسة في فتح آفاق جديدة لفهم بلاغة وبيان المكنون من الخطاب النبوي، لا بوصفه نصًا لغويًا ساكنًا، بل بوصفه تجربة تواصلية حيّة، كانت وما زالت تمثل الذروة في فقه الدعوة وفن التأثير.

مشكلة البحث

تتمثل مشكلة البحث في رصد الديناميكية اللغوية داخل الخطاب النبوي؛ إذ لم يكن حديث الأنبياء نَمَطًا جامدًا، بل كان تكييفًا تواصليًا يهدف إلى جَسْر الفجوة بين (المُبلِّغ والمُتلَق). وتبرز الإشكالية في تساؤل جَوْهري: كيف استطاع الأنبياء تطويع اللغة لثلاث مستويات إدراكية ونفسية متباينة دون المساس بجوهر الرسالة؟

إنَّ البحث يسعى لفكِّ شفرات هذا التنوع اللساني؛ لبيان كمال الأداء النبوي في إدارة الصراع الفكري بلسان عربي مُبين. ويمكن حصرُ المشكلة في النقاط التالية:

1. التَّبَاطُؤُ الفكري: كيف وازن الأنبياء بين استراتيجيات التقارب مع المؤمنين لتعزيز الثقة، واستراتيجيات التباعد مع المنكرين لفرض الحجة؟
2. التنوع المعجمي: إلى أي مدى ساهم اختيار مفردات مُستمدّة من بيئة المخاطب (زراعية، تجارية، أو إدارية...) (الخ) في إنجاح العملية التواصلية؟
3. التحول الأسلوبي: ما هي المعايير التي نقلت الخطاب النبوي من القول اللين إلى البيان الحاسم تبعًا لردود فعل الخصوم؟

أهمية الدراسة

تكتسب هذه الدراسة أهميتها من كونها محاولة جادة لمَسْأَلَةِ النَّصِّ الْمُقَسَّسِ القرآن الكريم بأدوات لسانية حديثة؛ إذ يُمثل تطبيق نظرية التكيف التواصلي (CAT) على خطاب الأنبياء نُقْلَةً نوعيّة من التحليل البلاغي الساكن إلى التحليل التداولي الحركي، وتتجلى هذه الأهمية في نقاطٍ محوريّة:

1. الرِّبْطُ المنهجي: التوفيق بين المنجز اللساني الغربي وبين بلاغة الوحي، مما يُثبت صلاحية النظريات الحديثة؛ لتحليل خطابٍ مُعْجَزٍ صمدٍ عبر العصور.
2. كشف الآليات: إبراز قدرات الأنبياء على إدارة المسافة الاجتماعية لغويًا، وكيف تحول اللسان إلى أداة دبلوماسية ودعوية فائقة الدقة.
3. إثراء المكتبة العربية: تقديم نموذج تطبيقي يجمع بين علم اللغة الاجتماعي (Sociolinguistics) وسياقات القصص القرآني، مما يفتح آفاقًا جديدة للباحثين في تحليل الخطاب الديني بمنظور نفسيّ ولساني معاصر. إنَّ القيمة الحقيقية لهذا البحث؛ تكمن في إثبات أن الخطاب النبوي كان تكييفًا مقصودًا، راعى مقتضى الحال بفنٍ تواصلي لم تَبْلُغُهُ نَظْمُ البشر.

منهج البحث

اعتمدت الدراسة في مقاربتها لموضوع التنوعات اللغوية في خطاب الأنبياء على المنهج الوصفي التحليلي، بوصفه المنهج الأنسب لاستنطاق النصوص، والكشف عن أبعادها التواصلية. ويتجلى تطبيق هذا المنهج عبر مسارين متكاملين:

1. **المَسَارُ الوَصْفِيُّ:** ويقوم على رصد الظواهر اللغوية والتنوعات الأسلوبية في الآيات التي تناولت حوارات الأنبياء، وتصنيفها تبعاً لاستراتيجيات نظرية التكيف (تقارباً وتباعداً)، مما يُقدّم صورةً دقيقةً لبنية الخطاب النبوي.
2. **المَسَارُ التَّحْلِيلِيُّ:** وينتقل بالبحث من مجرد الوصف إلى تفسير لماذا وكيف؛ وذلك بربط التنوع اللساني بالسياقات النفسية والاجتماعية للمخاطبين، وتحليل الأثر التداولي الذي تركته تلك التحولات اللغوية في عملية الإقناع أو إقامة الحجة. واستعان البحث بأدوات التحليل التداولي بوصفها مكملاً منهجياً، يركز على فعل القول والظروف المحيطة به، لبيان كيف تحولت اللغة في يد الأنبياء (عليهم السلام) من مجرد وعاء للمعلومات إلى طاقة تواصلية مؤثرة تُكَيِّفُ تَبَعاً لمقتضيات الحال.

المَطْلَبُ الأول: الإطار النظري (النظرية والخطاب)

يُمثِّلُ الإطار النظري الركيزة المعرفية التي تنطلق منها الدراسة؛ إذ يهدف إلى فكِّ الارتباط بين المنجز اللساني الحديث وبين طبيعة الخطاب النبوي. ويمكن تقسيم هذا المطلب إلى ثلاثة محاور أساسية:

أولاً: نظرية التكيف التواصلي (الاجتماعي CAT): المفهوم والأبعاد.

اختلفت تعريفات العلماء والكتاب للتكيف التواصلي الاجتماعي باختلاف زوايا رؤاهم، وتعددت تصوراتهم النظرية بتعدد خلفياتهم الإيديولوجية ولكنهم يتفقون في التوصيف كون التكيف عملية اجتماعية ذات عناصر متفاعلة تؤدي إلى التلاؤم والتوازن بين تلك العناصر. إذن ما هو التكيف التواصلي الاجتماعي؟

عرّفه أحمد عزت راجح بأنه "محاولة الفرد إحداث نوع من التواءم والتوازن بينه وبين بيئته المادية أو الاجتماعية ويكون ذلك عن طريق الامتثال للبيئة والتحكم فيها أو إيجاد حل وسط بينه وبينها" (الخالق، 1993، صفحة 56). بينما يرى مصطفى فهمي "إنّ التكيف هو عملية ديناميكية مستمرة يهدف منها الشخص إلى أن يغير سلوكه ليحدث علاقة أكثر توافقاً بينه وبين البيئة" (فهمي، 1963، صفحة 11)، ويُعرّف سيد خير الله التكيف الاجتماعي بقوله: "قدرة الفرد على التلاؤم والتوفيق بينه وبين رغبات المجتمع" (الله، 1973، صفحة 8)، ويُستدل على هذه القدرة من استجاباته التي تدل على شعوره بالأمن الشخصي والاجتماعي. وبناءً على هذا الفهم نستطيع أن نعرّف هذه الظاهرة بأنها القدرة على تكوين العلاقات المرضية بين المرء وبيئته الاجتماعية.

ويُمكن النظر إلى التكيف الاجتماعي على أنه عملية أو نتائج تغيرات عضوية أو تغيرات في التنظيم الاجتماعي أو الجماعة أو الثقافة تسهم في تحقيق البقاء واستمرار الوظيفة أو انجاز الهدف الذي يسعى إليه الكائن العضوي أو الشخصية أو الجماعة الثقافية (غيث، 1995، صفحة 17).

ويُتَّصَمُّ التعريف الأخير مجموعة عناصر من بينها مؤشر من مؤشرات التكيف وذلك من خلال الإشارة إلى استجابات الفرد للمواقف المختلفة وهذا ما يعكس شعوره بالأمن الشخصي والاجتماعي وهو ما يمكن اعتباره مؤشراً على التكيف.

ويُعني: "التكيف الاجتماعي نشاط الأفراد والجماعات لتحقيق المواءمة والانسجام والتوفيق والتفاهم بين الأفراد والجماعات، على نحو يتفق كل طرفٍ مشاعر واتجاهات وأفكار الطرف الآخر ليحدث تقارب وتتحقق المصلحة المشتركة وهو يقوم على التسامح والتخلي، وفيه يتنازل كل طرفٍ عن جزء من آرائه ومطالبه للمصلحة العامة"

(نصيرة، 2009، صفحة 20)، وتُعرّفه موسوعة العلوم الاجتماعية بأنه: "العملية التي يحاول بها الأفراد والجماعات أن يتلاءموا مع الأوضاع المختلفة التي يوجدون بها، وأن يَتَمَكَّنُوا من تغيير سلوكهم، أو تعديله طبقاً للظروف المحيطة تدريجياً على نحو يتلون باختلاف الأفراد والجماعات، بصورة يتجلى فيها السلوك المنسجم مع البيئة التي يعيش ضمنها الفرد أو تتفاعل معها الجماعة" (نصيرة، 2009، صفحة 22).

ثانياً: التنوع اللغوي في المنظور التداولي.

التنوع اللغوي (Linguistic Variation) ليس ترفاً أسلوبياً، بل هو استجابة لمقتضى الحال. أمّا بالنسبة إلى التداولية، ففيها درجة من الغموض؛ إذ يفتقر في اللغة الفرنسية المعنّيان: (المُحسوس، والملائم للحقيقة) (حباشة، 2007م، صفحة 17). يتناول هذا الجزء كيف تتغير مستويات اللغة من الحقيقة إلى المجاز، ومن اللين إلى الشدة تبعاً للمقام. إنّ البحث ينظر إلى التنوع بوصفه أداة استراتيجية لإنجاح المقاصد التواصلية، خاصة في الخطابات التي تهدف إلى التغيير العقدي والاجتماعي. و يُعد حديث النبي محمد(صلى الله عليه وآله): "مثل المؤمنين في تَوَادُّهم، وتَرَاحُمهم، وتَعَاطُفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى" (النيسابوري، ١٣٣٤ هـ، صفحة 20/8)، من أبلغ الأمثلة النّبوية التي تندرج فيها مستويات اللغة من الحقيقة إلى المجاز لتصوير المعاني الإيمانية وتقرّبها للآذان؛ إذ يبدأ الحديث بوصف الجسد على حقيقته الحسية الملموسة؛ فالمؤمنون في تَرَاحُمهم كجسد واحد يتكؤون من أعضاء مختلفة، وإذا أصاب الألم أو المرض عضو واحد، فإن هذا الألم لا ينفصل عنه، بل يمتد أثره ليشمل البدن كله من خلال الاستجابة الحيوية التي تسبب الحمى والسهر (الأرق). وقد استخدم النبي (صلى الله عليه وآله) أداة التشبيه (المثل) لربط الحالة الواقعية للجسد البشري بحالة المجتمع الإسلامي. هذا الربط بالتمثيل يمهّد ذهن السامع للانتقال من المحسوس المادي إلى المعنى الوجداني الخفي (المجازي).

ثالثاً: ماهية الخطاب النبوي وخصائصه التواصلية.

يتميز الخطاب النبوي بكونه خطاباً موجّهاً، يجمع بين البلاغة الإلهية والبيان البشري. ومن أهم خصائصه التي سيتم تأصيلها نظرياً:

أ- **القصدية:** النبوة بعمرها قلب متصل بجلال خالقها، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه، فهي إن لم تكن من الوحي ولكنها جاءت من سبيله، وإن لم يكن لها منه دليل فقد كانت هي من دليله، فكل لفظ من ألفاظ الأنبياء بفصاحته له قصيدة مننقة بعناية لتحقيق غرض هدايي محدد، نعم هي البلاغة النبوية، تعرف الحقيقة فيها كأنها فكر صريح من أفكار الخليفة؛ وتجيء بالمجاز الغريب فتري من غرابته أنه مجاز في حقيقة. وهي من البيان في إيجاز تتردد فيه عين البليغ فتعرفه مع إعجاز القرآن فر عين؛ فمن رآه غير قريب من ذلك الإعجاز فليعلم أنه لم يلق به، ففصاحة الأنبياء هي من السمات الذي لا يؤخذ فيه على حقه، ولا يتعلق بأسبابه متعلق، فإن العرب وإن هدّبوا الكلام وحذّوه وبالعوا في أحكامه وتجوّيده، إلا أن ذلك قد كان منهم عن نظر متقدم، وروية مقصودة، وكان عن تكلف يستعان له بأسباب الإجابة التي تسمو إليها الفطرة اللغوية فيهم، فيشبه أن يكون القول مصنوعاً مقدّراً، على أنهم مع ذلك لا يسلمون من عيوب الاستكراه والزلل والاضطراب، ومن حذف في موضع إطناب، وإطناب في موضع حذف، ومن كلمة غيرها أليق، ومعنى غيره أرد، ثم هم في باب المعاني ليس لهم إلا حكمه التجربة، وإلا فضل ما يأخذ بعضهم عن بعض، قل ذلك أو كثر. والمعاني هي التي تعمّر الكلام وتستنبح ألفاظه، وبحسبها يكون ماؤه ورونقه، وعلى مقدارها وعلى وجه تأديتها يكون مقدار الرأي فيه ووجه القطع، بيد أن رسول الله محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم)، كان أفصح العرب، على أنه لا يتكلف القول، ولا

يَقْصِدُ إِلَى تَرْبِيئِهِ، وَلَا يَبْغِي إِلَيْهِ وَسِيلَةً مِنْ وَسَائِلِ الصَّنْعَةِ، وَلَا يُجَاوِزُ بِهِ مَقْدَارَ الإِبْلَاحِ فِي الْمَعْنَى الَّذِي يُرِيدُهُ، ثُمَّ لَا يَغْرَضُ لَهُ فِي ذَلِكَ سَقَطٌ وَلَا اسْتِكْرَاهٌ؛ وَلَا تَسْتَرْلُهُ الْفُجَاءَةُ وَمَا يَبْدُو مِنْ أَغْرَاضِ الْكَلَامِ عَنِ الْأُسْلُوبِ الرَّائِعِ، وَعَنِ النَّمْطِ الْغَرِيبِ وَالطَّرِيقَةِ الْمُحْكَمَةِ، بِحَيْثُ لَا يَجِدُ النَّاطِرُ إِلَى كَلَامِهِ طَرِيقًا يَتَصَفَّحُ مِنْهُ صَاعِدًا أَوْ مُنَحْدِرًا؛ ثُمَّ أَنْتَ لَا تَعْرِفُ لَهُ إِلَّا الْمَعَانِي الَّتِي هِيَ إِلْهَامُ النَّبُوَّةِ، وَنِتَاجُ الْحِكْمَةِ، وَغَايَةُ الْعَقْلِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِمَّا يَخْرُجُ بِهِ الْكَلَامُ وَلَيْسَ فَوْقَهُ مَقْدَارٌ إِنْسَانِيٌّ مِنَ الْبَلَاغَةِ وَالتَّسْيِيدِ وَبَرَاةِ الْقَصْدِ الْمَجِيءِ فِي كُلِّ ذَلِكَ مِنْ وَرَاءِ الْغَايَةِ، وَسَيَأْتِي بَيَانُ ذَلِكَ.

وَأَنَّ كَلَامَهُ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)، لَكَمَا قَالَ الْجَاحِظُ (ت 255 هـ): "هُوَ الْكَلَامُ الَّذِي قَلَّ عَدَدُ حُرُوفِهِ، وَكَثُرَ عَدَدُ مَعَانِيهِ، وَجَلَّ عَنِ الصَّنْعَةِ، وَنَزَّ عَنِ التَّكَلُّفِ..". (الجاحظ، ١٤٢٣ هـ، صفحة 13/2). اسْتَعْمَلَ الْمُبْسُوطُ فِي مَوْضِعِ الْأَبْسُطِ، وَالْمُقْصُورَ فِي مَوْضِعِ الْقَصْرِ، وَهَجَرَ الْعَرِيبَ الْوَحْشِيَّ، وَرَغَبَ عَنِ الْهَجِينِ السُّوقِيِّ؛ فَلَمْ يَنْطِقْ عَنْ مِيرَاثِ حِكْمَةٍ، وَلَمْ يَتَكَلَّمْ إِلَّا بِكَلَامٍ قَدْ حَفَّ بِالْعِصْمَةِ، وَشَدَّ بِالتَّائِيدِ، وَيَسَّرَ بِالتَّوْفِيقِ.

وَهَذَا الْكَلَامُ الَّذِي أَلْقَى اللَّهُ الْمَحَبَّةَ عَلَيْهِ وَغَشَّاهُ بِالْقَبُولِ، وَجَمَعَ بَيْنَ الْمَهَابَةِ وَالْحَلَاوَةِ، وَبَيَّنَّ حُسْنَ الْإِفْهَامِ وَقَلَّةَ عَدَدِ الْكَلَامِ؛ هُوَ مَعَ اسْتِغْنَائِهِ عَنِ إِعَادَتِهِ، وَقَلَّةِ حَاجَةِ السَّامِعِ إِلَى مُعَاوَدَتِهِ، لَمْ تَسْقُطْ لَهُ كَلِمَةٌ، وَلَا زَلَّتْ لَهُ قَدَمٌ، وَلَا بَارَتْ لَهُ حُجَّةٌ، وَلَمْ يَقُمْ لَهُ خَصْمٌ، وَلَا أَفْحَمَهُ خَطِيبٌ.

بَلْ يَبْدُو (أَيُّ يَفُوقُ) الْخُطْبَ الطَّوَالَ بِالْكَلامِ الْقَصِيرِ، وَلَا يَلْتَمِسُ إِسْكَاتِ الْخَصْمِ إِلَّا بِمَا يَعْرِفُهُ الْخَصْمُ، وَلَا يَحْتَجُّ إِلَّا بِالصَّدَقِ، وَلَا يَطْلُبُ الْفَلَجَ (أَيُّ النَّصْرَ وَالظَّفَرَ) إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا يَسْتَعِينُ بِالْخِلَابَةِ (الْخِدَاعِ)، وَلَا يَسْتَعْمِلُ الْمُوَارِبَةَ (الْمَكْرَ)، وَلَا يَهْمُرُ وَلَا يَلْمِزُ، وَلَا يَبْطِئُ وَلَا يَعْجَلُ، وَلَا يُسْهَبُ وَلَا يَحْصُرُ.

ثُمَّ لَمْ يَسْمَعْ النَّاسُ بِكَلَامٍ قَطُّ: أَعَمَّ نَفْعًا، وَلَا أَصْدَقَ لَفْظًا، وَلَا أَعْدَلَ وَرْثًا، وَلَا أَجْمَلَ مَذْهَبًا، وَلَا أَكْرَمَ مَطْلَبًا، وَلَا أَحْسَنَ مَوْقِعًا، وَلَا أَسْهَلَ مَخْرَجًا، وَلَا أَفْصَحَ عَنْ مَعْنَاهُ، وَلَا أَبَيَّنَ عَنْ قُحُوَاهُ - مِنْ كَلَامِهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) اهـ. وَلَا نَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الْفَصَاحَةَ قَدْ كَانَتْ لَهُ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) إِلَّا تَوْفِيقًا مِنَ اللَّهِ وَتَوْفِيقًا (أَيُّ تَعْلِيمًا رَبَّانِيًّا)؛ إِذْ ابْعَثَهُ لِلْعَرَبِ وَهُمْ قَوْمٌ يُقَادِرُونَ مِنَ الْأَسْنَتِهِمْ، وَلَهُمْ الْمَقَامَاتُ الْمَشْهُورَةُ فِي الْبَيَانِ وَالْفَصَاحَةِ. ثُمَّ هُمْ مُخْتَلِفُونَ فِي ذَلِكَ عَلَى تَفَاوُتِ مَا بَيْنَ طَبَقَاتِهِمْ فِي اللُّغَاتِ وَأَدَابِ الْعَرَبِ؛ فَمِنْهُمْ الْقَصِيحُ وَالْأَفْصَحُ، وَمِنْهُمْ الْجَافِي وَالْمُضْطَرِبُّ، وَمِنْهُمْ ذُو اللَّوْنَةِ (أَيُّ الْعُجْمَةِ أَوْ الْبُطْءِ) وَالْخَالِصُ فِي مَنْطِقِهِ، إِلَى مَا كَانَ مِنْ اشْتِرَاكِ اللُّغَاتِ وَانْفِرَادِهَا بَيْنَهُمْ، وَتَخَصُّصِ بَعْضِ الْقَبَائِلِ بِأَوْضَاعٍ مَقْصُورَةٍ عَلَيْهِمْ لَا يُسَاهِمُهُمْ فِيهَا غَيْرُهُمْ مِنَ الْعَرَبِ إِلَّا مَنْ خَالَطَهُمْ أَوْ دَنَا مِنْهُمْ ذُنُوبُ الْمَأْخَذِ. وَهُوَ الْقَائِلُ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ): "أَنَا أَفْصَحُ الْعَرَبِ، يَبْدُو أَنِّي مِنْ قُرَيْشٍ" (الفارسي، ١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢ م، صفحة 145/2).

بـ مُرَاعَاةُ الْمَخَاطَبِ: قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ (عليه السلام): لِلْحِكْمَةِ أَهْلٌ فَإِنْ وَضَعْتَهَا فِي غَيْرِ أَهْلِهَا ضُيْعَتْ، وَإِنْ مَنَعْتَهَا مِنْ أَهْلِهَا ضُيْعَتْ. كُنْ كَالطَّبِيبِ يَضَعُ الدَّوَاءَ حَيْثُ يَنْبَغِي" (الحنبلي، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م، صفحة 57/1). وكذلك ورد في الحديث الشريف "نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نُكَلِّمَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ" (العراقي، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م، صفحة 117)، وهذا يُمَثِّلُ جَوْهَرَ التَّكْيِيفِ التَّوَاصُلِيِّ فِي الْفِكْرِ الْإِسْلَامِيِّ الْأَصِيلِ.

جـ السُّلْطَةُ الْمَعْرِفِيَّةُ: إِنَّ الْجَمْعَ بَيْنَ التَّوَدُّدِ (الرَّحْمَةِ) وَبَيْنَ الْحَسَمِ (الْحَقِّ) يُعَدُّ مِنْ كَمَالِ الْخُلُقِ؛ فَالَّذِينَ وَالرَّفْقُ وَالتَّوَدُّدُ يُقَوِّي الرِّوَابِطَ بَيْنَ الْإِخْوَانِ، وَتُعَمِّقُ الصِّلَةَ بَيْنَهُمْ؛ فَ "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ".

وَتَأْمَلْ فِي الْحَدِيثِ بَعْثَ الْبَصِيرَةِ، إِذْ قَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لِيُعْطِيَ عَلَى الرَّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْخُرْقِ وَإِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا أَعْطَاهُ الرَّفْقَ مَا مِنْ أَهْلٍ بَيْتٍ يَحْرُمُونَ الرَّفْقَ إِلَّا حَرُمُوا" (القاهري، ١٤٣٩ هـ - ٢٠١٨ م، صفحة 57/11) وفي حديث آخر "تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ وَأَمْرُكَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيُكَ عَنِ الْمُنْكَرِ

صَدَقَهُ وَإِرْشَادُكَ الرَّجُلَ فِي أَرْضِ الضَّلَالِ لَكَ صَدَقَةٌ وَبَصَرُكَ لِلرَّجُلِ الرَّدِيءِ الْبَصَرُ لَكَ صَدَقَةٌ وَإِمَاطَتُكَ الْحَجَرَ وَالشُّوْكَهَ وَالْعَظْمَ عَنِ الطَّرِيقِ لَكَ صَدَقَةٌ وَإِفْرَاغُكَ مِنْ دُلُوكَ فِي دُلُو أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ" (التوحيدي، صفحة 49/1). فالرفق يزين كل أمر يُخالطه، وعاقبته دائماً هي الحق والقبول.

المطلب الثاني: آليات التكيف التواصلية في خطاب الأنبياء (التقارب والتباعد).

تُعَدُّ نظرية التكيف التواصلية، التي طوّرها هوارد جايلز (Howard Giles)، من أهم النظريات التي تفسر السلوك اللغوي اجتماعياً ونفسياً. وتقوم على فكرة أن المتحدث ليس كائناً لغوياً معزولاً، بل هو محاور ذكي يُعدّل لغته لتقليل أو زيادة المسافة مع الآخر (هاروود، صفحة 268)، نوضح ذلك في الآتي:

أ- استراتيجية التقارب (Convergence): وهي محاولة المتحدث مواءمة أسلوبه (نبرة، ومعجم، وسرعة) مع المخاطب أو تسهيل فهمه، نحو: استخدام لغة القوم، قال تعالى: P وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ... O [ابراهيم: 4]. ومن مضممار آخر الأمثال البيئية: عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ: أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ): أَنْ أَتَعَلَّمَ لَهُ كِتَابَ يَهُودٍ. قَالَ: "إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَمَنْ يَهُودٍ عَلَى كِتَابٍ" قَالَ: فَمَا مَرَّ بِي نَصْفَ شَهْرٍ حَتَّى تَعَلَّمْتُهُ. قَالَ: فَلَمَّا تَعَلَّمْتُهُ كَانَ إِذَا كَتَبَ إِلَى يَهُودٍ كَتَبْتُ إِلَيْهِمْ، وَإِذَا كَتَبُوا إِلَيْهِ قَرَأْتُ لَهُ كِتَابَهُمْ" وقال: "أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ): أَنْ أَتَعَلَّمَ السَّرْيَانِيَّةَ". (الترمذي، ١٩٩٦ م، صفحة 439/4).

ومن خلال ما تقدم نطبق استراتيجية التقارب (Convergence) لنرى الفوائد الآتية:

الفائدة الأولى: إِنَّ كُلَّ قَوْمٍ تَرَبَّطَ بَيْنَهُمُ الْمَصَالِحُ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنَ التَّعَاوُنِ، وَلَا يَنْبَغُ التَّعَاوُنُ إِلَّا بِالتَّفَاهُمِ، وَالتَّفَاهُمُ بِالْمُشَافَهَةِ وَالْكِتَابَةِ، فَقَلَى الْقَوْمُ الْمُتَرَابِطِينَ بِالْمَصْلَحَةِ أَنْ يَفْهَمُوا بَعْضُهُمْ لُغَةً بَعْضٍ وَخَطَّهُ، وَيَقْدِرُ مَا تَكْثُرُ الْأَقْوَامُ الْمُتَرَابِطَةُ بِالْمَصْلَحَةِ تَكْثُرُ اللَّغَاتُ وَالْخُطُوطُ وَيَلْزَمُ تَعَلُّمُهَا، لِأَنَّ الْعِلَّةَ هِيَ الْحَاجَةُ. وَسَوَاءٌ كَانَتْ الْمَصْلَحَةُ الَّتِي تَرَبَّطُ الْأَقْوَامُ عُمَرَانِيَّةً أَوْ عِلْمِيَّةً لِأَنَّ الْمَصْلَحَةَ بَاعْتِبَارَهَا مَصْلَحَةً مُحْتَاجٌ إِلَى تَخْصِيلِهَا، وَالنَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)، أَمَرَ زَيْدًا بِتَعَلُّمِ الْكِتَابَةِ، لِأَنَّ اللُّغَةَ كَانَتْ عَرَبِيَّةً وَلَوْ كَانَتْ لُغَةً أُخْرَى لِأَمْرِهِ بِتَعَلُّمِهَا لِغَلَّةِ الْحَاجَةِ، وَالْحُكْمُ يَدُورُ مَعَ الْعِلَّةِ. وَقَدْ جَاءَ عَنْ زَيْدٍ مِنْ طَرِيقٍ أُخْرَى - ذَكَرَهَا التِّرْمِذِيُّ - أَنَّ النَّبِيَّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)، أَمَرَهُ أَنْ يَتَعَلَّمَ السَّرْيَانِيَّةَ. فَحُنُ الْيَوْمِ وَقَدْ رَبَطَتْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ أُمَمٍ أُخْرَى مَصَالِحٌ عَلَيْنَا أَنْ نَعْرِفَ لُغَتَهُمْ وَخَطَّهُمْ كَمَا عَلَيْهِمْ هُمْ أَنْ يَعْرِفُوا لُغَتَنَا وَخَطَّنَا.

الفائدة الثانية: هَذِهِ السُّنَّةُ أَصْلٌ فِي اتِّخَاذِ الْكُتْبَةِ وَالتَّرَاجِمَةِ فِي الدَّوْلَةِ وَمَا يُشْتَرَطُ فِيهِمْ مِنَ الْعِلْمِ وَالْأَمَانَةِ.

الفائدة الثالثة: كَانَ فِي إِمْكَانِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)، أَنْ يُكَاتِبَهُمْ بِالْخَطِّ الْعَرَبِيِّ وَيُلْزِمَهُمْ أَنْ يُكَاتِبُوهُ بِهِ وَلَكِنْ تَسَامُحَ الْإِسْلَامَ وَاحْتِرَامُهُ لِمُحْتَرَمَاتِ الْأُمَمِ فِي دِينِهِمْ وَقَوْمِيَّتِهِمْ قَضَا بِتَرْكِ الْيَهُودِ يَكْتُبُونَ وَيُكَاتِبُونَ بِخَطِّهِمْ، فَأَقْرَأَهُمُ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)، عَلَى مَا أَرَادُوا وَكَلَّفَ هُوَ مَنْ تَعَلَّمَ خَطَّهُمْ. وَتَرَكَهَا لِاتِّبَاعِهِ سُنَّةً بَعْدَهُ.

الفائدة الرابعة: هَذِهِ السُّنَّةُ أَصْلٌ فِي ضَبْطِ أُمُورِ الدَّوْلَةِ بِالْكِتَابَةِ فِيمَا يَصْدُرُ عَنْهَا وَفِيمَا يُوْجَّهُ إِلَيْهَا. وَمِثْلَهَا ضَبْطُ كُلِّ الْمُعَامَلَاتِ، فَهِيَ أَصْلٌ فِي التَّسْجِيلِ عَلَى الْعُمُومِ. وَهَكَذَا تَجِدُ سُنَّةَ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)، إِذَا تَنَبَّغَتْهَا - قَدْ قَرَّرْتُ بِالْفِعْلِ - أَصُولًا كَثِيرَةً مِنْ أُصُولِ الْمَدِينَةِ وَالْعُمَرَانِ، وَلِهَذَا كَانَ عَلَى قَارِئِهَا أَنْ يَتَنَاوَلَهَا لِلْفَهْمِ وَالِاسْتِغْنَاءِ وَالنَّطَبِيقِ عَلَى الْأَحْوَالِ. هَا نَحْنُ نُقَلِّبُ صَفَحَاتٍ رَائِعَةً مِنْ سِفْرِ الْوَلَايَةِ فِي تَارِيخِ النُّبُوتِ؛ لِنَشْهَدَ صُورًا مِنَ التَّقَارُبِ وَالتَّرَاحُمِ بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَبِخَاصَّةِ الثَّلَاثَةِ الْعُظَمَاءِ مِنْ أُولِي الْعُرْمِ: مُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدٌ (عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ)، الَّذِينَ تَرَسَّخَتْ فِي التَّارِيخِ جُذُورُ دَعْوَاتِهِمْ، وَامْتَدَّتْ لِثَوْبِ فِي الْأَحْدَاثِ الْعَالَمِيَّةِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ. وَمِنْ الْعَجَبِ أَنْ تَتَكَرَّرَ الْمَشَاهِدُ عَلَى نَسْقٍ

سَوَاءٍ فِي حَيَاةِ هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءِ الثَّلَاثَةِ (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ)، فَمَا بَيْنَ آلَامِ الْوَحْدَةِ وَالْيُثْمِ، وَالنَّعْرَبِ عَنِ الدَّارِ، وَالْهَجْرَةِ فَرَارًا مِنَ الْعُدُوِّ، إِلَى الْيَهْيَايَاتِ الْأَلِيمَةِ عَلَى أَرْضِ النَّبِيِّ (لِمُوسَى)، وَالرَّفْعِ إِلَى السَّمَاءِ مِنْ جَوَارِ بَنِي لَحْمٍ (لِعِيسَى)، وَأَخِيرًا الْإِحْقَاقَ بِالْيَهْيَايَةِ الْمَشْرِقَةِ السَّعِيدَةِ الَّتِي رَفَرَتْ أَعْلَامُهَا مِنْ جَوَارِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ (لِمُحَمَّدٍ). وَعِنْدَمَا نُقَلِّبُ صَفَحَاتِ هَذَا السَّفَرِ بَيْنَ عِيسَى وَمُحَمَّدٍ، نَجِدُ أَنَّ بَشَارَةَ عِيسَى بِظُهُورِ مُحَمَّدٍ فِي آخِرِ الزَّمَانِ لَا تُقَوِّفُهَا إِلَّا بِشَارَةَ مُحَمَّدٍ بِعَوْدَةِ عِيسَى فِي آخِرِ الزَّمَانِ (عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ)، فَقَدْ وَصَفَ كُلُّ مِثْمَا أَخَاهُ لِأَصْحَابِهِ وَصَفًا يُزِيلُ عَنْهُمْ الْجَهْلَ بِهِ إِذَا ظَهَرَ؛ فَعِيسَى (عَلَيْهِ السَّلَامُ)، يُحَدِّثُ الْحَوَارِيَّينَ عَنْ صِفَاتِ (أَحْمَدَ) حَتَّى كَانَتْهُمْ يَرَوْنَهُ رَأْيَ الْعَيْنِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ...﴾ [الصف: 6]، هَا هُوَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ وَيَطُوفُ بِالنَّاسِ فِي أَرْضِ الْخَلِيلِ، يُعَلِّمُهُمْ فِي مَجَالِسَ وَعِظِهِ الْكَثِيرَةِ وَيُبَشِّرُهُمْ بِبَنِي آخِرِ الزَّمَانِ الَّذِي يُمَجِّدُ الرَّبَّ وَيُنَشِّرُ رِسَالَتَهُ: "الْمَجْدُ لِلَّهِ فِي الْأَعَالِي، وَعَلَى الْأَرْضِ السَّلَامُ، وَبِالنَّاسِ الْمُسَرَّةِ" أَوْ "وَلِلنَّاسِ أَحْمَدُ" (لوقا ١٤/٢)، فَأَمَّا كَوْنُ الرَّسُولِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)، مَذْكُورَ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ فَلَا شَكَّ فِي ذَلِكَ لِدَلَالَةِ الْقُرْآنِ عَلَيْهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَجْلُ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 157].

بـ استراتيجيَّة التباعد (Divergence): تَتَجَلَّى هَذِهِ الْأَسْثَرَاتِ اجْتِمَاعِيَّةً بِأَبْعَادِهَا النَّفْسِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِدَقَّةٍ مُتَنَاهِيَةٍ؛ لِإِبْرَازِ الْفَوَارِقِ الْقِيَمِيَّةِ وَالْمَعْرِفِيَّةِ، أَوْ لِلتَّأْكِيدِ عَلَى الْهُوِيَّةِ الْمُسْتَقْلَةِ، وَمُحَاوَلَةِ الْاسْتِعْلَاءِ الْإِيمَانِيِّ. وَتَحَدَّثُ عِنْدَمَا يَتَعَمَّدُ الْمُتَحَدِّثُ إِبْرَازَ الْفَوَارِقِ اللَّغَوِيَّةِ لِلتَّأْكِيدِ عَلَى هُوِيَّتِهِ الْخَاصَّةِ أَوْ لِفَرْضِ نَوْعٍ مِنَ الْاسْتِعْلَاءِ الْمَعْرِفِيِّ وَالْقِيَمِيِّ، وَتُشِيرُ إِلَى مِثْلِ الْمُتَحَدِّثِينَ لاسْتِخْدَامِ لُغَاتٍ أَوْ مُفْرَدَاتٍ مُمَيَّزَةٍ؛ لِإِظْهَارِ (الهُوِيَّةِ الْمُسْتَقْلَةِ)، أَوْ الْإِنْتِمَاءِ لِمَجْمُوعَةٍ مُعَيَّنَةٍ، مِمَّا يَخْلُقُ تَبَاعُدًا لُغَوِيًّا فِي مَوَاقِفِ التَّوَاصُلِ، بَدَلًا مِنَ التَّقَارُبِ؛ مِثْلُ: نِدَاءَاتِ التَّوَدُّدِ وَالْقَرَابَةِ (يَا قَوْمُ، يَا بُنَيَّ، يَا أَبَتُ):

أولاً: (يَا قَوْمُ) إِبْرَازِ الْفَوَارِقِ الْقِيَمِيَّةِ وَالْمَعْرِفِيَّةِ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (38) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هِيَ دُنْيَا مَتَاعٍ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (39)﴾ [غافر: ٣٨ - ٣٩] ، هَذَا مَقَالٌ فِي مَقَامٍ آخَرَ قَالَهُ مُؤْمِنٌ آلِ فِرْعَوْنَ، فَهَذِهِ الْمَقَالَاتُ الْمَعْطُوفَةُ بِالْوَاوِ مَقَالَاتٌ مُتَّفَرِّقَةٌ. فَابْتَدَأَ مَوْعِظَتَهُ بِنِدَائِهِمْ لِيُفَلِّتَ إِلَيْهِ أَذْهَانُهُمْ وَيَسْتَنْصِغِي أَسْمَاعَهُمْ، وَيَعْنُوَانِ أَنَّهُمْ قَوْمُهُ لِثُغْنِي إِلَيْهِ أَفِيدَتُهُمْ. وَرَتَّبَ خُطْبَتَهُ عَلَى أُسْلُوبِ تَقْدِيمِ الْإِجْمَالِ ثُمَّ تَعْقِيبِهِ بِالتَّفْصِيلِ، فَابْتَدَأَ بِقَوْلِهِ: اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ، وَسَبِيلَ الرَّشَادِ مُجْمَلٌ وَهُوَ عَلَى إِجْمَالِهِ مِمَّا تُثَوِّقُ إِلَيْهِ النَّفُوسُ، فَزَبَطَ حُصُولَهُ بِاتِّبَاعِهِمْ إِيَّاهُ مِمَّا يُقْبَلُ بِهِمْ عَلَى تَلْقَايِ مَا يُفَسِّرُ هَذَا السَّبِيلَ، وَيَسْتَرْعِي أَسْمَاعَهُمْ إِلَى مَا يَقُولُهُ إِذْ لَعَلَّهُ سَيَأْتِيهِمْ بِمَا تَرْتَبِعُهُ أَنْفُسُهُمْ إِذْ قَدْ يَظُنُّونَ أَنَّهُ نَفَحَ رَأْيَهُ وَخَلَّ مَقَالَهُ وَأَنَّهُ سَيَأْتِي بِمَا هُوَ الْحَقُّ الْمَلَامُ لَهُمْ. وَتَقَدَّمَ ذِكْرُ سَبِيلِ الرَّشَادِ أَنْفَاءً.

وَأَعَادَ النِّدَاءَ تَأْكِيدًا لِإِقْبَالِهِمْ إِذْ لَاحَتْ بَوَارِقُهُ فَأَكْمَلَ مُقَدِّمَتَهُ بِتَفْصِيلِ مَا أَجْمَلَهُ يُذَكِّرُهُمْ بِأَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا مَخْدُودَةٌ بِأَجَلٍ غَيْرِ طَوِيلٍ، وَأَنَّ وَرَاءَهَا حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ، لِأَنَّهُ عَلِمَ أَنَّ أَشَدَّ دِفَاعِهِمْ عَنْ دِينِهِمْ مُنْبِعُثٌ عَنْ مَحَبَّةِ السِّيَادَةِ وَالرَّقَايَةِ؛ وَذَلِكَ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا الرَّائِلِ وَأَنَّ الْخَيْرَ لَهُمْ هُوَ الْعَمَلُ لِلسَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ. وَقَدْ بَنَى هَذِهِ الْمَقَدِّمَةَ عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ مَعْرِفَةٍ أَنَّ وَرَاءَ هَذِهِ الْحَيَاةِ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ فِيهَا حَقِيقَةُ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاءِ، وَفِيهَا الْجَزَاءُ عَلَى الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ بِالنَّعِيمِ أَوْ الْعَذَابِ، إِذْ كَانَتْ دِيَانَتُهُمْ تُثَبِّتُ حَيَاةً أُخْرَى بَعْدَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِكَيْهَا حَرَفَتْ مُعْظَمَ وَسَائِلِ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ، فَهَذِهِ حَقَائِقُ مَسَلَمَةٍ عِنْدَهُمْ

على إجمالها وهي من نوع الأصول الموضوعية في صناعة الجدال، وبذلك تمت مقدماته خطبته وتهيأت نفوسهم لبيان مقصده المفسر لإجمال مقدماته. فجملة إنما هذه الحياة الدنيا متاع مبينة لجملة أهدكم سبيل الرشاد.

والمناخ: ما ينتفع به انبعاثاً موجلاً. والقرار: الدوام في المكان. والقصر المستفاد من قوله إنما هذه الحياة الدنيا متاع قصر موصوف على صفة، أي لا صفة للدنيا إلا أنها نفع موقت، وهو قصر قلب لتزليل قومه في تهالكهم على منافع الدنيا منزلة من يحسبها منافع خالدة.

"وجعلنا من عمل سيئة إلى آخرهما بياناً لجملة وإن الآخرة هي دار القرار والقصر المستفاد من ضمير الفصل في قوله وإن الآخرة هي دار القرار قصر قلب نظير القصر في قوله: إنما هذه الحياة الدنيا متاع، وهو مؤكد للقصر في قوله: إنما هذه الحياة الدنيا متاع من تأكيد إثبات ضد الحكم لضد المحكوم عليه، وهو قصر قلب، أي لا الدنيا" (عاشور، التحرير والتنوير، ١٩٨٤ هـ، الصفحات 149/24-150). فتوكيد الإنذار بالتكرار أبلغ تأثيراً، وأشد تخويفاً من التزغيب في قبول النصيح؛ فقد كرر فيه النداء (يا قوم) لتعطيف قلوبهم واستمالتها، والتلذذ بذكر المكرر، دلالة على أن التأكيد بالإنذار الثاني أبلغ وأشد، وزيادة في التنبيه على ما ينفي التهمة ليكمل تلقي الكلام بالقبول. ورغم التباعد الحاصل أصراً النبي موسى (عليه السلام) على دُعائهم، وأصرُّوا على جُودهم وعُودهم. (الرفاعي، ١٩٨٠ م، صفحة 235). قال تعالى: ﴿يَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (41) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (42)﴾ [غافر: ٤١ - ٤٢]، يبرز هذا التباعد جلياً في قصة مؤمن آل فرعون في سورة (غافر)؛ إذ تعمَّد المتحدِّث استخدام نداء القرابة والتودد (يا قوم) ليصنع فاصلاً لغوياً وقيماً حاداً بين هويته الإيمانية الجديدة، وهويته الشركية المستغلية بغير حق.

وبالتحليل اللفظي: استخدَم المتحدِّث لفظ (يا قوم) للتودد أولاً، لكنه أتبعه فوراً بـ (تباعِدْ مغرِبٍ وقيمي) صارم؛ لقد وضع نفسه في كفة (النجاة، العلم، الدعوة للعزيز الغفار)، ووضعهم في كفة مقابلة تماماً (النار، الكفر، الجهل). هذا التباعد اللغوي تعمَّد إبراز الفوارق الفكرية؛ للتأكيد على هويته الإيمانية المستقلة عن مجتمع فرعون.

ثانياً: (يا بُنَيَّ): التباعد الإيماني مقابل رابطة الدم.

يتجلى هذا النمط من التباعد في حوار النبي نوح (عليه السلام) مع ابنه في سورة (هود)؛ إذ ورد نداء القرابة (يا بُنَيَّ) في سياق يبرز التباعد في الهوية الإيمانية. قال تعالى: ﴿.... وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزَلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ (42) قَالَ سَأُولِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ....﴾ [هود: ٤٢ - ٤٣]، ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا﴾: ينادي نداء فيه عطف وحنان، والواجب: أن ينادي الابن أباه، وإذا نادى الأب ابنه؛ كان على الابن أن يستجيب لنداء أبيه، ولكنه عمي على بصيرته، فلم يستجب. ﴿ارْكَب مَعَنَا﴾: تعال، واركب معنا في الفلك. ﴿وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ﴾: ولم يقل: وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ، هذا النداء تودد، وعطف من أب لابنه الذي سيغرق عن قريب إن لم يركب في الفلك مع أبيه وأهله، ولم يطلق على ابنه كافر؛ فقال: مع الكافرين؛ أي: في صحبة الكافرين؛ أي: لم يتهم ابنه بالكفر، أو يصفه بذلك؛ مما يؤدي بالابن إلى الإصرار على عدم الركوب، ورغم جريان السقينة لا زال هناك إمكانية للركوب، والوقت وقت نجاة؛ النجاة أولاً، ثم الإيمان إذا شاء الله، وأذن بعد ذلك (الهلال، ١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢ م، صفحة 37/12).

ويتجلى الاستعلاء المعرفي القائم على الوحي والعلم الإلهي في حوار هود (عليه السلام) مع ابنه ناذي بـ (يا بُنَيَّ) لتقريب المسافة، لكنه قرنها بطلب التميز اللغوي والفعلي: ﴿ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ﴾. رد الابن جاء

بِتَّبَاعِدٍ حَادٍ يُمَثِّلُ هُوَيْتَهُ الْمُسْتَقَلَّةَ وَعِنَادَهُ الْمَعْرِفِيَّ: ﴿قَالَ سَأُوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾؛ فَرَفَضَ التَّقَارُبَ اللُّغَوِيَّ وَالْعَمَلِيَّ مَعَ أَبِيهِ، مِمَّا أَدَّى فِي النِّهَايَةِ إِلَى حَسْمِ التَّبَاعُدِ حِينَ قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ...﴾ [هود:46]

ثالثاً: نداء (يا أبت): الاستعلاء المعرفي الإيماني الأديب.

يَتَجَلَّى الاستعلاء المعرفي القائم على الوحي والعلم الإلهي في حوار إبراهيم (عليه السلام) مع أبيه (آزر) في سورة (مريم)، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [مريم:43]، أي بعض العلم وهو علم الوحي أو التوحيد أو الآخرة، أقوال ثلاثة ذكرها أبو حيان، فأخبر أنه قد وصل إليه من العلم نصيب لم يصل إلى أبيه، وأنه قد تجدد له حصول ما يتوصل به منه إلى الحق ويُقَدَّرُ به على إرشاد الضال، ولهذا أمره باتباعه فقال: (فاتبعني) في الإيمان والتوحيد (أهدك صراطاً سويّاً) مستوياً موصلاً إلى المطلوب، مُنْجِياً مِنَ الْمَكْرُوهِ، ثُمَّ أَكَّدَ ذَلِكَ بِنَصِيحَةٍ أُخْرَى زَاجِرَةً لَهُ عَمَّا هُوَ فِيهِ فَقَالَ: (يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ) (الفتوح، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م، صفحة 164/8).

يَتَجَلَّى التَّحْلِيلُ الْبَسَانِي بِاسْتِخْدَامِ إِبْرَاهِيمَ نَدَاءِ التَّوَدُّدِ وَالْقَرَابَةِ (يَا أَبَتِ)، لَكِنَّهُ أَخَذَتْ تَبَاعُداً مَعْرِفِيّاً وَفِيمَا هَائِلاً وَقَوْرِيّاً غَيْرَ جُمْلَةٍ: ﴿إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾؛ هُنَا يُبْرَزُ الْمُتَحَدِّثُ فَوَارِقَ لُغَوِيَّةٍ وَمَعْرِفِيَّةٍ تُؤَكِّدُ هُوَيْتَهُ كَنَبِيٍّ يُوحَى إِلَيْهِ، وَيُمَارِسُ اسْتِعْلَاءَ مَعْرِفِيّاً مَشْرُوعاً (بِالْعِلْمِ وَالْهُدَى) لِيُوجِّهَ الطَّرْفَ الْآخَرَ، بَدَلاً مِنَ التَّمَاهِي مَعَ لُغَةٍ أَبِيهِ الْوُثْنِيَّةِ. إِنَّ الاسْتِعْلَاءَ الْإِيمَانِيَّ وَالْمَعْرِفِيَّ الْمَشْرُوعَ فِي الْخُطَابِ التَّحْلِيلِيِّ التَّوَالِيَّ؛ إِذْ يُوضِّحُ كَيْفَ يُمَكِّنُ لِأَدَاةِ لُغَوِيَّةٍ تُسْتُخْدَمُ أَصْلاً لِتَقْرِيبِ الْمَسَافَاتِ الْعَاطِفِيَّةِ الْوُجْدَانِيَّةِ (وَهِيَ صَيْغَةُ نَدَاءِ الْأَبَّةِ الْمُلْتَطِّقَةِ بِاللُّغَوِيَّاتِ بِالنَّاءِ) أَنْ تَصْبَحَ مُتَّكِّلاً لِأَحْدَاثٍ مُفَاصِلَةٍ مَعْرِفِيَّةٍ تَامَّةٍ، تَعْتَمِدُ عَلَى امْتِلَاكِ حَقِيقَةِ الْوَحْيِ الْمُلْتَطِّقَةِ فِي مُوَاجَهَةِ الْجَهْلِ الْوُثْنِيِّ.

وَنَلْحَظُ أَنَّ الْمَلَمَحَ السُّوسِيُولِسَانِيَّ (Sociolinguistics) وَالتَّوَالِيَّ لِلشَّاهِدِ، تَظْهَرُ بِهِ عِبَرِيَّةُ الْبِنَاءِ الْإِسْتِرَاتِيْجِيَّ فِي الْخُطَابِ الْإِبْرَاهِيمِيِّ مِنْ جَلَالِ مُفَارَقَةِ تَوَالِيَّةٍ دَقِيقَةٍ:

١. أداء التَّقَارُبِ الْعَاطِفِيِّ (يَا أَبَتِ): تَكَرَّرَتْ فِي السُّورَةِ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ؛ لِتَكُونَ بِمَثَابَةِ مُمْتَصِّنِ الصَّدَمَاتِ النَّفْسِيِّ، وَلِتَنْشِيطِ الْحَقِّ الْأَخْلَاقِيِّ وَالرَّحْمِيِّ لِلْوَالِدِ، حِمَايَةَ لِلابْنِ مِنْ مَعَبَةِ الْعُقُوقِ.
٢. أداء التَّبَاعُدِ الْمَعْرِفِيِّ (إِنِّي قَدْ جَاءَنِي...): صِيغَتْ بِأَسْلُوبِ الْقَصْرِ وَالْمُقَابَلَةِ الْحَادَّةِ بَيْنَ (الْمَوْصُولِ وَصَلْتِهِ) وَالْمُنْفِيِّ؛ مِمَّا يُبْرَزُ جَعْلَ الْعِلْمِ كَأَنَّهُ كَائِنٌ خَارِجِيٌّ مُشَخَّصٌ جَاءَ إِلَيْهِ هُوَ حَصْرًا ﴿جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ﴾، وَحُرْمَ مِنْهُ الْأَبُ ﴿مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾.
٣. قَلْبُ الْأَدْوَارِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ: هَذَا التَّبَاعُدُ قَلْبُ الْأَدْوَارِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ التَّرَاثُيَّةِ؛ فَاصْبَحَ الْإِبْنُ (الْأَصْغَرُ سِنًا وَالتَّابِعُ اجْتِمَاعِيًّا) هُوَ الْقَائِدُ الْفِكْرِيُّ وَالْمُتَّبِعُ مَعْرِفِيًّا ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ﴾، مِمَّا يُبْرَزُ كَيْفَ أَنَّ الْهُوِيَّةَ الرَّسَالِيَّةَ تُعِيدُ تَشْكِيلَ تَوَارُثَاتِ الْقُوَى دَاخِلِ الْمَوْقِفِ التَّوَالِيَّ الْوَاحِدِ.

وَنَلْخُصُّ مِمَّا تَقَدَّمَ إِلَى أَنَّ بَحْثَ آيَاتِ التَّكْثِيفِ التَّوَالِيَّ (Communication Accommodation

Theory). فِي خُطَابِ الْأَنْبِيَاءِ (التَّقَارُبِ وَالتَّبَاعُدِ) يُبْرَزُ عَلَى أَنَّ الْخُطَابَ النَّبَوِيَّ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ لَمْ يَكُنْ خُطَابًا عَفْوِيًّا، بَلْ امْتَلَأَتْ مُرُونَهُ تَوَالِيَّةٌ عَالِيَةً، اسْتُخْدِمَتْ (التَّقَارُبِ) لِمَدِّ جُسُورِ الْمَصَالِحِ وَالتَّعَايُشِ، وَاسْتُخْدِمَتْ (التَّبَاعُدِ) لِحِفْظِ الْهُوِيَّةِ الْعَقْدِيَّةِ وَإِبْرَازِ الاسْتِعْلَاءِ الْمَعْرِفِيِّ الْقَائِمِ عَلَى الْوَحْيِ دُونَ إِخْلَالِ بِالْقَوَاعِدِ الْأَخْلَاقِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ.

المطلب الثالث: المتغيرات الحاکمة للتنوع اللغوي في الخطاب النبوي

لأريب إنَّ اللسان النبوي لا يتحرك في فضاء معزول عن محيطه الاجتماعي والنفسي، بل إنَّ الخطاب الرسالي يُمثِّل قِمة المرونة التداوليَّة (Pragmatic Flexibility) والدَّكاء اللغوي. وإذا كانت الآليات التَّكْيِيف النَّوْاصِلِيَّ مِنْ تَقَارُبٍ وَتَبَاعُدٍ - يُمَثِّلُنَ الْأَدَوَاتِ الْإِجْرَائِيَّةَ؛ فَإِنَّ الْمُتَغَيَّرَاتِ السِّيَاقِيَّةَ وَالْمَقَامِيَّةَ (Contextual and Situational Variables) هِيَ الْمَحْرَكُ الْأَسَاسِيُّ لِتِلْكَ الْأَدَوَاتِ. يَقُومُ هَذَا الْفَصْلُ عَلَى رَكِيزَةٍ لِسَانِيَّةٍ تَدَاوِلِيَّةٍ مَقَادُهَا: أَنَّ الصِّيَاغَةَ الصَّوْتِيَّةَ وَالْمُعْجَمِيَّةَ وَالتَّرَكِيبِيَّةَ لِخُطَابِ الْأَنْبِيَاءِ تَتَشَكَّلُ دِينَامِيكِيًّا اسْتِجَابَةً لِمُتَغَيَّرِينَ رَئِيسِيْنَ:

الأول: طَبِيعَةُ الْمُتَلَقِّي أَيْدِيُولُوجِيًّا وَطَبِيعِيًّا، والثاني: طَبِيعَةُ الْمَقَامِ النَّفْسِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ الَّذِي تَقْرُضُهُ بَيْئَةُ الدَّعْوَةِ.

المتغير الأول: أثر طَبِيعَةِ الْمُتَلَقِّي

إِنَّ الْمُتَلَقِّيَّ فِي الْمَنْظُورِ التَّدَاوِلِيِّ لَيْسَ مُجَرَّدَ وَعَاءٍ سَلْبِيٍّ يَسْتَقْبِلُ الرَّسَالَهَ، بَلْ هُوَ شَرِيكَ فِي فَلَا أَنْبِيَاءَ (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) حُوطِبُوا بِضَرُورَةٍ تَنْزِيلِ النَّاسِ مَنَازِلَهُمْ، وَهُوَ مَا يُفَسِّرُ التَّبَايْنَ اللَّغَوِيَّ الصَّارِخَ فِي الْأَسَالِيبِ الْبُنْيَوِيَّةِ عِنْدَ الْإِنْتِقَالِ مِنْ مُخَاطَبَةِ قِمةِ الْهَرَمِ السُّلْطَوِيِّ إِلَى مُخَاطَبَةِ الْقَوَاعِدِ الشَّعْبِيَّةِ أَوْ الْجَمَاعَةِ الْمُؤْمِنَةِ.

أولاً: خُطَابُ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ

يَتَمَيَّزُ خُطَابُ الْأَنْبِيَاءِ لِلْمُلُوكِ بِمُقَارَقَةٍ تَدَاوِلِيَّةٍ دَقِيقَةٍ؛ إِذْ يَبْتَدِئُ اسْتِرَاطِيْجِيًّا بِآلِيَةِ التَّقَارُبِ اللَّيْنِ لِامْتِصَاصِ الطَّغْيَانِ النَّفْسِيِّ وَتَأْمِينِ مَسَاحَةِ الْاسْتِمَاعِ، فَإِذَا جَابَهُ الْمَلِكُ الدَّعْوَةُ بِالْعِنَادِ، تَحَوَّلَ الْخُطَابُ فَوْراً إِلَى التَّبَاعُدِ الْحَادِّ وَالِاسْتِغْلَاءِ الْمَعْرِفِيِّ الَّذِي يَسْحَقُ الْكِبْرِيَاءَ السِّيَاسِيَّ لِلْمَلِكِ عَبْرَ الْحُجَّةِ الْكُونِيَّةِ الصَّارِمَةِ.

الشَّاهِدُ الْأَوَّلُ: فِي مَقَامِ التَّقَارُبِ الْأَوَّلِيِّ وَالْأَمْرِ الْإِلَهِيِّ بِاللَّيْنِ لِمُوسَى وَهَارُونَ فِي مُوَاْجَهَةِ فِرْعَوْنَ. قَالَ تَعَالَى: (أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44)) [طه: 43-44]، وَقَوْلُهُ: (فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا) هُوَ تَخْفِيفٌ لَّيْنِ كَمِيَّتٍ فِي مَيَّتٍ. وَقَوْلُهُ: (لَعَلَّهُ) فِيهِ أَوْجُهُ:

أَحَدُهَا: أَنَّ (لَعَلَّ) عَلَى بَابِهَا لِلتَّرَجِّي، وَذَلِكَ بِالسَّبَبَةِ إِلَى الْمُرْسَلَيْنِ وَهُمَا مُوسَى وَهَارُونَ، أَيْ: أَذْهَبَا عَلَى رَجَائِكُمَا وَطَمَعِكُمَا فِي إِيْمَانِهِ، أَيْ: أَذْهَبَا مُتَرَجِّبَيْنِ طَامِعَيْنِ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ الرَّمَحْشَرِيِّ (ت ٥٣٨ هـ). وَلَا يَسْتَقِيمُ أَنْ يَرَدَ ذَلِكَ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى، إِذْ هُوَ عَالِمٌ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ. وَعَنْ سِيبَوِيَّةٍ (ت ١٨٠ هـ): كُلُّ مَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ (لَعَلَّ) وَ(عَسَى) فَهُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاجِبٌ، يَعْنِي أَنَّهُ يَسْتَحِيلُ بَقَاءُ مَعْنَاهَا فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى.

وَالثَّانِي: أَنَّ (لَعَلَّ) بِمَعْنَى (كَيْ) فَتُفِيدُ الْعِلِّيَّةَ، وَهَذَا قَوْلُ الْفُرَّاءِ (ت ٢٠٧ هـ) قَالَ: كَمَا تَقُولُ: اْعْمَلْ لَعَلَّكَ تَأْخُذُ أَجْرَكَ، أَيْ: كَيْ تَأْخُذَ. وَالثَّالِثُ: أَنَّهَا اسْتِفْهَامِيَّةٌ، أَيْ: هَلْ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى؟ وَهَذَا قَوْلٌ سَاقِطٌ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ يَسْتَحِيلُ الْاسْتِفْهَامُ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا يَسْتَحِيلُ التَّرَجِّي، فَإِذَا كَانَ لَا بُدَّ مِنَ التَّأْوِيلِ فَجَعَلَ اللَّفْظُ عَلَى مَذْلُولِهِ بَاقِيًا أَوَّلَى مِنْ إِخْرَاجِهِ عَنْهُ (الدمشقي، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م، صفحة 253/13). عَدَلَ الْخُطَابُ هُنَا عَنْ صِبْغِ التَّهْدِيدِ الْقُورِيِّ إِلَى الْقَوْلِ اللَّيْنِ، وَهُوَ تَكْيِيفٌ تَدَاوِلِيٌّ يُنَاسِبُ مَقَامَ الْمُلُوكِ الَّذِينَ لَا يُخَاطَبُونَ ابْتِدَاءً بِخُشُونَةٍ كَسَرَ الْحَوَاجِزِ.

الشاهد الثاني: المَحَاجَّةُ الكُونِيَّةُ الحَاسِمَةُ بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) وَالتَّمْرُودِ: قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ﴾ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمَسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأَتَتْ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258) [البقرة: 258]، "اسْتِنْتَفَاهُ ابْتِدَائِي: لِلتَّعْجِيبِ مِنْ حَالَةِ الْيَهُودِ فِي شِدَّةِ ضَلَالِهِمْ. فَالِاسْتِنْفَاهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ لِلتَّقْرِيرِ وَالتَّعْجِيبِ، وَقَدْ جَاءَ الْاسْتِعْمَالُ فِي مِثْلِهِ أَنْ يَكُونَ الْاسْتِنْفَاهُ دَاخِلًا عَلَى نَفْيِ الْفِعْلِ وَالْمُرَادُ حُصُولُ الْإِقْرَارِ بِالْفِعْلِ لِيَكُونَ التَّقْرِيرُ عَلَى نَفْيِهِ مُحَرَّضًا لِلْمُخَاطَبِ عَلَى الْإِعْتِرَافِ بِهِ بِنَاءً عَلَى أَنَّهُ لَا يَرْضَى أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ يَجْهَلُهُ" (عاشور، التحرير والتنوير، ١٩٨٤ هـ، صفحة 208/3)، ونلاحظ هنا عِنْدَمَا مَارَسَ الْمَلِكُ مُغَالَطَةً لُغَوِيَّةً وَعَقْلِيَّةً لَمْ يَدْخُلْ إِبْرَاهِيمُ فِي جَدَلٍ جُرْئِيٍّ، بَلْ نَقَلَ الْخُطَابَ إِلَى اسْتِعْلَاءِ تَدَاوُلِيٍّ كُونِيٍّ مُعْجَزٍ خَرَقَ بِهِ نَسَقَ الْمَلِكِ السُّلْطَوِيِّ وَجَعَلَهُ فِي مَقَامِ الْبُهْتِ وَالْعَجْزِ اللُّغَوِيِّ النَّامِ.

ثانياً: خطاب العامة والمستضعفين.

في المقابل، عِنْدَمَا يَتَوَجَّهُ الْأَنْبِيَاءُ إِلَى الْعَامَّةِ (الْقَوَاعِدِ السَّعْيِيَّةِ)، تَسْقُطُ نَبْرَةُ النَّدِيَّةِ الكُونِيَّةِ، وَتَحُلُّ مَحَلَّهَا اسْتِرَاجِيَّةُ التَّقَارُبِ الوجداني النَّامِ.

الشاهد القرآني: تَكَرَّرُ نِدَاءُ الشَّفَقَةِ وَالْإِتْحَامِ السُّوسِيُولُوجِي: قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (28)﴾ [هود: 28]، وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ: (قَالَ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي إِلَى آخِرِهِ أَتُرَوْنَ أَنُلْزِمُكُمْ قَبُولَ الْبَيِّنَةِ وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)، وَجِيءَ بِضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ الْمُشَارِكِ هُنَا لِلْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ الْإِلْزَامَ لَوْ فُرِضَ وَقُوْعُهُ لَكَانَ لَهُ أَغْوَانٌ عَلَيْهِ وَهُمْ أَتْبَاعُهُ فَأَرَادَ أَنْ لَا يُهْمَلُ ذِكْرُ أَتْبَاعِهِ وَأَنَّهُمْ أَنْصَارٌ لَهُ لَوْ شَاءَ أَنْ يَهَيِّبَ بِهِمْ. وَالْقَصْدُ مِنْ ذَلِكَ التَّنْوِيهِ بِشَأْنِهِمْ فِي مُقَابَلَةِ تَحْقِيرِ الْآخَرِينَ إِيَّاهُمْ.

وَالِاسْتِنْفَاهُ إِنْكَارِيٌّ، أَيُّ مَا كَانَ لَنَا ذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَأْمُرْهُ بِإِكْرَاهِهِمْ إِعْرَاضًا عَنِ الْعِنَايَةِ بِهِمْ فَتَرَكَ أَمْرَهُمْ إِلَى اللَّهِ، وَذَلِكَ أَشَدُّ فِي تَوَقُّعِ الْعِقَابِ الْعَظِيمِ.

وَالْكَارَةُ: الْمُبْغِضُ لِشَيْءٍ. وَعُدِّي بِاللَّامِ إِلَى مَفْعُولِهِ لَزِيَادَةِ تَقْوِيَةِ تَعَلُّقِ الْكَرَاهِيَّةِ بِالرَّحْمَةِ أَوْ الْبَيِّنَةِ، أَيُّ وَأَنْتُمْ مُبْغِضُونَ قَبُولَهَا لِأَجْلِ إِعْرَاضِكُمْ عَنِ التَّدَبُّرِ فِيهَا.

وَتَقْدِيرُ الْمَجْرُورِ عَلَى كَارِهُونَ لِرِعَايَةِ الْفَاصِلَةِ مَعَ الْإِهْتِمَامِ بِشَأْنِهَا. وَالْمَقْصُودُ مِنْ كَلَامِهِ بَعْثُهُمْ عَلَى إِعَادَةِ التَّأَمُّلِ فِي الْآيَاتِ. وَتَخْفِيزُ نَفْسِهِمْ. وَاسْتِنْزَالُهُمْ إِلَى الْإِنْصَافِ. وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ مَعْذَرَتُهُمْ بِمَا صَنَعُوا وَلَا الْعُدُولَ عَنْ تَكْرِيرِ دَعْوَتِهِمْ (عاشور، التحرير والتنوير، ١٩٨٤ هـ، الصفحات 52-53). ونلاحظ إِنَّ صِبْغَةَ النِّدَاءِ (يَا قَوْمِ) بِجَرِّ يَاءِ الْمُتَكَلِّمِ الْمَحْدُوفَةِ لِلتَّخْفِيفِ، وَالِاتِّكَاءُ عَلَى الْاسْتِنْفَاهِ التَّلَطُّفِيِّ اللَّيِّنِ، يَعْكُسُ تَكْيِيفاً لُغَوِيّاً يَهْدِفُ إِلَى اسْتِثَارَةِ الرَّابِطَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، لِإِزَالَةِ الْعَوَاقِبِ النَّفْسِيَّةِ بَيْنَ الرَّسُولِ وَبَيْنَ عَامَّةِ النَّاسِ.

ثالثاً: خطاب المؤمنين.

المَسَافَةُ التَّوَاصُلِيَّةُ فِي خُطَابِ الْمُؤْمِنِينَ تَأْخُذُ شَكْلًا صِفْرِيًّا، فَاللُّغَةُ هُنَا لَيْسَتْ لُغَةً مُفَاصِلَةً، بَلْ هِيَ لُغَةُ التَّوْجِيهِ الدَّاخِلِيِّ، وَالتَّنْشِيطِ، وَبِنَاءِ الْأَيْدِيُولُوجِيَا الْمَعْرِفِيَّةِ الْمُشْتَرَكَةِ.

الشَّاهِدُ: نَبَرَةُ الطُّمَأْنِينَةِ وَالْمُؤَاسَاةِ فِي أَحْلَاكِ الظُّرُوفِ عِنْدَمَا أَدْرَكَ فِرْعَوْنُ وَجُودَهُ مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ: قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ (61) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62)﴾ [الشعراء: 61-62]

وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ سَيَبِينُ لِي سَبِيلَ سَلَامَتِنَا مِنْ فِرْعَوْنَ وَجُنْدِهِ. وَاقْتَصَرَ مُوسَى عَلَى نَفْسِهِ فِي قَوْلِهِ: إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا عَالِمِينَ بِمَا ضَمَّنَ اللَّهُ لَهُ مِنْ مَعِيَّةِ الْعِنَايَةِ فَإِذَا عَلِمُوا ذَلِكَ عَلِمُوا أَنَّ هِدَايَتَهُ تَنْفَعُهُمْ لِأَنَّهُ قَائِدُهُمْ وَالْمُرْسَلُ لِقَائِدَتِهِمْ (عنصر_نائب2) (عاشور، التحرير والتنوير، ١٩٨٤ هـ، صفحة 135/19).

أما تَحْلِيلُ اللَّفْظِ التَّداوُلِيِّ: يَظْهَرُ التَّحْلِيلُ فِي كَلِمَةِ (كَلَّا) الَّتِي جَاءَتْ لِرَدِّعِ الْخَوْفِ النَّفْسِيِّ الْمُتَسَرِّبِ إِلَى قُلُوبِ الْأَتْبَاعِ (أَصْحَابِ مُوسَى)، وَفِي اسْتِخْدَامِ ضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ الْمُتَّصِلِ فِي (مَعِيَ). فَالْنَّبِيُّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَخْتَرْ نَبَرَةَ الْعِتَابِ لَهُمْ حِينَ قَالُوا لَهُ بِفِرْعَ ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾، بَلْ عَدَلَ نَبَرَةَ الْخُطَابِ فَوْرِيًّا إِلَى صِغَةِ الْمَعِيَّةِ الْإِلَهِيَّةِ الْحَاضِرَةِ يَقِينًا ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾، ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِوَعْدِ التَّوْجِيهِ وَالْهَدَايَةِ الْمُشْتَرَكَةِ لِلْمُخْرَجِ (سَيَهْدِينِ) (أَي سَيَهْدِينِي وَإِبَاكُمْ إِلَى طَرِيقِ النِّجَاةِ)، مِمَّا أَحَدَثَ تَقَارُبًا نَفْسِيًّا حَاسِمًا، امْتَصَّ صَدَمَةَ الْمُشْهَدِ (الْبَحْرُ مِنْ أَمَامِهِمْ وَالْعُدُوُّ مِنْ خَلْفِهِمْ)، وَتَبَّتْ قُلُوبُ الْمُتَلَقِّينَ. وَفِي هَذَا الشَّاهِدِ الْجَدِيدِ، نُلَاحِظُ كَيْفَ تَحَوَّلَتِ "الْمَعِيَّةُ" إِلَى طَاقَةٍ تَنْبِيْطٍ فَوْرِيَّةٍ؛ فَرَعْمَ أَنَّ مُوسَى (عَلَيْهِ السَّلَامُ) قَالَ (مَعِيَ) بِإِسْنَادِ الْمَعِيَّةِ لِنَفْسِهِ أَوَّلًا لِيَتَحَمَّلَ عِبَاءَ الْقِيَادَةِ وَمَسْئُولِيَّةَ الْيَقِينِ، إِلَّا أَنَّ أَثَرَهَا التَّداوُلِيَّ انْسَحَبَ فَوْرًا عَلَى الْمَجْمُوعِ مِنْ خِلَالِ السِّينِ الْاسْتِقْبَالِيَّةِ فِي (سَيَهْدِينِ) الَّتِي فَتَحَتْ بَابَ الْأَمَلِ وَالنِّجَاةِ لِلْجَمِيعِ، وَصَفَّرَتْ الْمَسَافَةَ بَيْنَ الْقَائِدِ وَأَتْبَاعِهِ الْخَائِفِينَ.

رَابِعًا: خُطَابُ الْجَادِحِينَ وَالْمُعَانِدِينَ

عِنْدَمَا يَصِلُ الْمُتَلَقِّي إِلَى مَرَحَلَةِ الْجُمُودِ الْأَيْدِيُولُوجِي، يَتَوَقَّفُ الْأَنْبِيَاءُ عَنْ مُمَارَسَةِ التَّقَارُبِ، وَيَتَحَوَّلُ الْمُعْجَمُ اللَّغَوِيُّ إِلَى التَّبَاعُدِ الْإِيقَاعِيِّ وَالتَّرْكِيبِيِّ، عَنِ اسْتِخْدَامِ أُسَالِيبِ النَّهْكَمِ وَالتَّقْرِيعِ.

الشَّاهِدُ: صَرَامَةُ الْمُفَاصَلَةِ الْإِبْرَاهِيمِيَّةِ لِجَادِحِي قَوْمِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (67)﴾ [الأنبياء: 67]، "(أَفِ)" اسْمُ فِعْلٍ مُضَارِعٌ بِمَعْنَى: (أَتَضَجَّرُ)، وَالْجَارُ وَالْمَجْرُورُ (لَكُمْ) مُتَعَلِّقَانِ بِ(أَفِ) وَالْجَارُ وَالْمَجْرُورُ (مِنْ دُونِ) مُتَعَلِّقَانِ بِحَالٍ مِنَ الْمَفْعُولِ الْمَقْدَرِ (لِ تَعْبُدُونَ)، وَجُمْلَةُ (أَفِ لَكُمْ) مُسْتَأْنَفَةٌ فِي حَيْزِ الْقَوْلِ، وَجُمْلَةُ (تَعْقِلُونَ) مُسْتَأْنَفَةٌ (بِلال، ١٤٢٦ هـ، صفحة 728/2). وَاسْمُ الْفِعْلِ (أَفِ) بِمَا يَحْمِلُهُ مِنْ دَلَالَةٍ صَوْتِيَّةٍ وَمُعْجَمِيَّةٍ عَلَى الضَّجَرِ، مَثْبُوعًا بِالْإِسْتِفْهَامِ التَّوْبِيخِيِّ (أَفَلَا تَعْقِلُونَ)، يُمَثِّلُ ذِرْوَةَ اسْتِثْنَائِيَّةِ التَّبَاعُدِ؛ إِذْ يَضَعُ الْأَنْبِيَاءُ فَاصِلًا سَمِيكًا يَعْزِلُ الْهُوِيَّةَ الْإِيمَانِيَّةَ عَنِ الْهُوِيَّةِ الْجَادِحَةِ.

الْمُنْعَيَّرُ الثَّانِي: أَثَرُ الْحَالَةِ النَّفْسِيَّةِ وَالْمَقَامِ

يَرْتَبِطُ هَذَا الْمُنْعَيَّرُ بِسُوسِيُولُوجِيَا الْخُطَابِ وَسِيَاقِ الْمَوْقِفِ. فَالْمَقَامُ السِّيَاسِيُّ وَالْأَمْنِيُّ الْخَارِجِيُّ يَعْمَلَانِ كَقُلُوبٍ لَعَوِي يَنْتَقِي حِجْمَ الْعِبَارَاتِ وَنَوْعِ النَّبَرَةِ.

أَوَّلًا: مَقَامُ الدَّعْوَةِ السِّرِّيَّةِ وَالْخَفِيَّةِ.

يَطْلُبُ مَقَامَ الْخَوْفِ وَالْمَلَاَحَقَةِ الْأَمْنِيَّةِ تَكْثِيفًا لَعَوِيًّا يَقُومُ عَلَى الْإِيْجَازِ، وَالنَّجْوَى، وَهُدُوءِ النَّبَرَةِ.

الشَّاهِدُ: حِكَايَةُ نُوحٍ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) عَنِ اسْتِخْدَامِهِ الْهَيْكَلِ النَّوَصِلِيِّ الْمُرْدَوْجِ تَبَعًا لِلْمَقَامِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (8) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (9)﴾ [نوح: 8-9]، "﴿ثُمَّ﴾: للترتيب والتراخي في الزمن أي: بعد زمن طويل من دعوتهم بالسر دعوتهم بالجهر. ﴿إِنِّي﴾: للتأكيد. ﴿دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾: أي: مجاهرًا بالدعوة والجهر هو رفع الصوت مع الإعلان جهارًا أي: بأعلى صوتي أو مبالغة في الإظهار أي: دعوتهم بالعلن بعد أن دعوتهم بالسر والخفاء. ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾، ﴿ثُمَّ﴾: للدلالة على البعد والتباين بين صفة الدعوة في السر والعلن. ﴿إِنِّي﴾: لتكرار التوكيد وأنه استعمل أسلوب الدعوة الإسرار والإعلان (الجهر) معًا. ﴿لَهُمْ﴾: وتكرار لهم تفيد التوكيد. ﴿وَأَسْرَرْتُ﴾: تفيد التوكيد" (الهلال، ١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢ م، الصفحات 186/29-187). والتأكيد بالمصدر ﴿إِسْرَارًا﴾ بَعْدَ الْفِعْلِ ﴿أَسْرَرْتُ﴾ يَعْكُسُ وَغْيًا بِأَهَمِّيَّةِ التَّكْثِيفِ الصَّوْتِيِّ؛ فَالْإِسْرَارُ يُنَاسِبُ النُّفُوسَ الْمُسْتَوْجِشَةَ، وَيَسْمَحُ بِالْإِقْرَابِ الْفَرْدِيِّ الْهَادِي بَعِيدًا عَنِ ضَوْضَاءِ الْمَجْمُوعِ.

ثَانِيًا: مَقَامُ الدَّعْوَةِ الْجَهْرِيَّةِ الْعَلَنِيَّةِ.

عِنْدَمَا يَتَحَوَّلُ الْمَقَامُ إِلَى الْجَهْرِ، تَنْقَلِبُ الْأَلْيَاتُ الْعَوِيَّةُ؛ فَيَتَحَوَّلُ الْخُطَابُ إِلَى بِنَاءِ جَمَاهِيرِي عَالِي النَّبَرَةِ مُمْتَلِي بِأَدَوَاتِ التَّأْكِيدِ.

الشَّاهِدُ: خُطَابُ الْمُوَاجَهَةِ وَإِعْلَانُ الْبَرَاءَةِ النَّامَةِ: قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (3)﴾ [الكافرون: 1-3]، يُعَدُّ اسْتُلُوبُ الْأَمْرِ مِنَ الْأَسَالِيبِ الْإِنْشَائِيَّةِ الطَّلْبِيَّةِ الَّتِي اهْتَمَّ بِهَا النُّحُوثُونَ وَالْبَلَاغِيُّونَ، وَقَدْ عَرَفَهُ ابْنُ فَارِسٍ (ت 395 هـ) قَائِلًا: "الْأَمْرُ عِنْدَ الْعَرَبِ مَا إِذَا لَمْ يَفْعَلْهُ الْمَأْمُورُ سُمِّيَ الْمَأْمُورُ بِهِ عَاصِيًا، وَيَكُونُ بَلْفُظًا: فَعَلْتُ وَلَيْفَعَلْتُ" (الحسين، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م، صفحة 138)، "وَمَذَارُ دَلَالَةِ الْأَمْرِ عَلَى الطَّلْبِ، وَمَا يَحْدُدُ طَبِيعَةَ الطَّلْبِ وَدَرَجَتَهُ لَيْسَ هُوَ الصِّيغَةُ الْمُحَدَّدَةُ، بَلْ مُلَابَسَاتُ الْخُطَابِ كَالْعَلَاَقَةِ بَيْنَ الْمُخَاطَبِ وَالْمُخَاطَبِ بِحُكْمِ مَكَانَةِ الْخُطْبِ" (الزهيري، 2023 م، صفحة 243) وَقَدْ ظَنَّ قَوْمٌ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تَكْرِيرٌ لَا فَايْدَةَ فِيهِ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَإِنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿لَا أَعْبُدُ﴾ يَعْنِي فِي الْمُسْتَقْبَلِ: مِنْ عِبَادَةِ إِلَهَتِكُمْ، وَلَا أَنْتُمْ قَاعِلُونَ فِيهِ مَا أَطْلُبُهُ مِنْكُمْ مِنْ عِبَادَةِ إِلَهِي، ﴿وَلَا أَنَا عَابِدُ مَا عَبَدْتُمْ﴾ أَي: وَمَا كُنْتُ عَابِدًا قَطُّ فِيمَا سَلَفَ مَا عَبَدْتُمْ، يَعْنِي أَنَّهُ لَمْ يُعْهَدْ مِنِّي عِبَادَةُ صَنَمٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فِي وَقْتِ مَا، فَكَيْفَ يُرْجَى ذَلِكَ مِنِّي فِي الْإِسْلَامِ؟ ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ﴾ فِي الْمَاضِي فِي وَقْتِ مَا مَا أَنَا عَلَى عِبَادَتِهِ الْآنَ (محمد، صفحة 7/3). وَإِنَّ إِفْتِتَاحَ الْخُطَابِ بِالْفِعْلِ الْأَمْرِيِّ النَّدَاوِيِّ ﴿قُلْ﴾، مَثْبُوعًا بِالْإِدَاءِ الصَّرِيحِ الصَّادِمِ بِالْوَصْفِ الْعَقْدِيِّ ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، وَظَفَ لِحْدَمَةِ مَقَامِ الْمُفَاصَلَةِ النَّامَةِ، الَّذِي لَا يَتْرُكُ مَجَالًا لِلْمُوَارَبَةِ.

ثَالِثًا: مَقَامُ الْإِسْتِضْعَافِ.

فِي حَالَاتِ الْإِضْطِهَادِ، يَتَكَيَّفُ خُطَابُ الْأَنْبِيَاءِ بِذَكَاءٍ مُذْهِلٍ؛ فَلَا يَتَّصِدُّونَ مَعَ الْقُوَّةِ الْمَادِيَّةِ، بَلْ يَنْفُذُ مِنْ خِلَالِ الْمَسَاحَاتِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي تَسْتَعِلُّ حَاجَةَ الْمُتَلَقِّي.

الشَّاهِدُ الْأَوَّلُ: خُطَابُ يُوسُفَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فِي السِّجْنِ: قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (39)﴾ [يوسف:39]، لَمْ يَنْطَلِقْ يُوسُفُ مِنْ مَقَامِ الْأُسْتَاذِيَّةِ، بَلْ بَدَأَ بِتَكْيِيفِ خُطَابِهِ تَلُطُّفًا عَنِ نِدَاءِ رَفْقَتِهِ (يَا صَاحِبِي السِّجْنِ) لِيُؤَكِّدَ وَحْدَةَ الْمَقَامِ، ثُمَّ مَرَّرَ الْحُجَّةَ الْعَقْدِيَّةَ عَنِ اسْتِفْهَامِ تَقْرِيرِي.

الشَّاهِدُ الثَّانِي: خُطَابُ مُوسَى (عَلَيْهِ السَّلَامُ) أَمَامَ الْبَحْرِ: قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ (61) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62)﴾ [الشعراء:61-62]، فِي اللَّحْظَةِ الَّتِي تَزَلْزَلَتْ فِيهَا الْبُنَى اللَّغَوِيَّةُ لِأَصْحَابِ مُوسَى ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾، كَسَرَ مُوسَى هَذَا التَّسْقِ بِحَرْفِ الرَّذْعِ (كَلَّا)، مُثْبَعًا بِـ (إِنَّ مَعِيَ رَبِّي). إِنَّ تَقْدِيمَ الْجَارِ وَالْمَجْرُورِ غَيْرَ نَبْرَةِ الْجَمَاعَةِ مِنَ الْخَوْفِ إِلَى الْأَمْنِ.

رَابِعًا: مَقَامُ التَّمْكِينِ وَبِنَاءِ الدَّوْلَةِ.

حِينَ يَنْتَقِلُ الْأَنْبِيَاءُ إِلَى مَسَاحَةِ التَّمْكِينِ، يَتَخَلَّى الْخُطَابُ عَنِ الْاسْتِعْطَافِ، وَيَتَحَوَّلُ إِلَى لُغَةٍ قَانُونِيَّةٍ، تَشْرِيْعِيَّةٍ، حَازِمَةٍ تَصْدُرُ مِنْ مَرْكَزِ الْقُوَّةِ.

الشَّاهِدُ الْأَوَّلُ: الصَّرَامَةُ الدَّبْلُومَاسِيَّةُ لِسُلَيْمَانَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فِي خُطَابِهِ لِمَلِكَةِ سَبَأَ: قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30) أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ (31)﴾ [النمل:30-31]، قَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَاهُ: حَسَنٌ مَا فِيهِ، ثُمَّ بَيَّنَّتْ مَا فِيهِ فَقَالَتْ: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَنْ لَا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ﴾، وَقِيلَ: ﴿أَلْقِي إِلَيَّ كِتَابَ كَرِيمٍ﴾ (النمل: ٢٩)، عَنَتِ أَنَّهُ جَاءَ مِنْ عِنْدِ رَجُلٍ كَرِيمٍ. وَقِيلَ: كِتَابُ كَرِيمٍ أَيْ مَخْتُومٌ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ﴾ (الْوَاقِعَةُ: ٤٤). قَالَ الْفَرَّاءُ (ت207هـ): "العربُ تجعلُ الكريمَ تابعا لكلِّ شيءٍ نَفَتْ عَنْهُ فَعَلًا تَنَوَّى بِهِ الدَّمَ" (منصور، ٢٠٠١م، صفحة 132/10). وَبِذَلِكَ يَتَجَلَّى تَكْيِيفُ مَقَامِ التَّمْكِينِ هُنَا فِي الْإِيجَازِ التَّنْفِيذِيِّ الصَّارِمِ؛ وَبِتَمَثُّلِ ذَلِكَ فِي خَلْوِ الرِّسَالَةِ مِنَ الْمَقْدِمَاتِ، بَلْ جَاءَتْ مَبْنِيَّةً عَلَى صِيغَةِ النَّهْيِ الْمُبَاشِرِ ﴿أَلَا تَعْلَمُونَ﴾ وَالْأَمْرِ الْحَازِمِ ﴿وَأُتُونِي﴾، وَهُوَ خُطَابٌ يُمَثِّلُ هَيْبَةَ السُّلْطَةِ.

الشَّاهِدُ الثَّانِي: خُطَابُ الرَّسُولِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)، التَّشْرِيْعِيُّ فِي الْمَجْتَمَعِ الْمَدَنِيِّ، قَالَ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (13)﴾ [النساء:13] "الْحُدُودُ: جَمْعٌ حَدٍّ، وَهُوَ فِي الْأَصْلِ: الْمَنْعُ، وَالْفَصْلُ بَيْنَ شَيْئَيْنِ. وَحُدُودُ اللَّهِ تَعَالَى: مَحَارِمُهُ" (المبرد، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م، صفحة 745/3). وَاسْتِخْدَامُ اسْمِ الْإِشَارَةِ لِلْبَعِيدِ (تِلْكَ)، وَالرَّبْطُ بِاللَّفْظِ الْقَانُونِيِّ (حُدُودُ)، يَعْكُسُ تَحَوُّلَ الْخُطَابِ إِلَى بُنْيَةٍ مَعْيَارِيَّةٍ صَارِمَةٍ تَضْبِطُ حَرَكَةَ الدَّوْلَةِ.

مِنْ خِلَالِ اسْتِعْرَاضِ مَا تَقْدِمُ نَسْتَخْلَصُ، يَتَأَكَّدُ لَنَا بِوُضُوحٍ أَنَّ التَّنَوُّعَ اللَّغَوِيَّ فِي الْخُطَابِ النَّبَوِيِّ لَيْسَ مُجَرَّدَ تَنَوُّعٍ شَكْلِيٍّ، بَلْ هُوَ تَنَوُّعٌ وَظِيفِيٌّ تَدَاوُلِيٌّ مَحْكُومٌ بِالْمَتَغَيِّرَاتِ الْمُحِيطَةِ وَيُمْكِنُ إِجْمَالُ أَبْرَزِ النَّتَائِجِ اللَّسَانِيَّةِ لِهَذَا الْمَطْلَبِ فِي النَّقَاطِ الْأَتِيَةِ:

1. مُرُونَةُ مُعْجَمِيَّةٍ وَتَرْكِيبِيَّةٍ: أَظْهَرَ الْأَنْبِيَاءُ قُدْرَةَ فَايَقَةٍ عَلَى هُنْدَسَةِ كَلَامِهِمْ؛ فَحَفَّضُوا نَبَرَتَهُمْ الصَّوْتِيَّةَ مَعَ الْعَامَّةِ عَنِ الْيَةِ التَّقَارُبِ، وَرَفَعُوا وَتِيرَةَ الْخُطَابِ مَعَ الْمُلُوكِ عَنِ الْيَةِ التَّبَاعُدِ.
2. الْوَعْيُ التَّدَاوُلِيُّ بِالْمَقَامِ: أُتْبِنَتْ الشَّوَاهِدُ أَنَّ لُغَةَ الْاسْتِضْعَافِ لَا تُشْبِهُ لُغَةَ التَّمْكِينِ؛ فَالْأُولَى تَبْحَثُ عَنِ التَّنْيِيسِ، بَيْنَمَا تَنْطَلِقُ الثَّانِيَّةُ مِنْ هَيْبَةِ التَّشْرِيعِ.

3. غَايَةُ الْخُطَابِ: إِنَّ التَّكْيِيفَ اللَّغَوِيَّ النَّبَوِيَّ لَمْ يَهْدَفْ أَبَدًا إِلَى دَوْبَانِ الْهُوِيَّةِ، بَلْ كَانَ دَائِمًا وَسِيلَةً ذَكِيَّةً لِإِبْصَالِ الْحُرْصِ الرَّسَالِيِّ بِأَعْلَى كَفَاءَةٍ تَوَاصُلِيَّةٍ مُمَكِّنَةٍ، تُطَبِّقُهَا لِلْقَاعِدَةِ اللَّسَانِيَّةِ الدَّهْبِيَّةِ: (بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ).

خَاتِمَةُ الْبَحْثِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ، وَبَعْدُ:

فَقَدْ خَلَصَتْ هَذِهِ الدِّرَاسَةُ الْمُؤَسَّسَةُ بِـ (التَّنْوِيعَاتِ اللَّغَوِيَّةِ فِي خُطَابِ الْأَنْبِيَاءِ: دِرَاسَةٌ فِي ضَوْءِ نَظَرِيَّةِ التَّكْيِيفِ التَّوَاصُلِيِّ) إِلَى خَاتِمَةٍ مَنْهَجِيَّةٍ تُؤَكِّدُ أَنَّ الْخُطَابَ النَّبَوِيَّ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لَمْ يَكُنْ بَيِّنًا سَاكِنًا، بَلْ كَانَ ظَاهِرَةً تَدَاوُلِيَّةً حَرَكَتِيَّةً بَلَغَتْ دُرُورَةَ الْإِعْجَازِ التَّوَاصُلِيِّ.

لَقَدْ أَثْبَتَ الْبَحْثُ قُدْرَةَ الْأَنْبِيَاءِ (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) عَلَى طَوْعِ السِّيَاقِ اللَّسَانِيِّ وَتَعْدِيلِهِ نَفْسِيًّا وَاجْتِمَاعِيًّا لِيُلاَيِمَ مُخْتَلَفَ الشَّرَاحِ الْبَشَرِيَّةِ؛ فَكَانَ التَّنْوِيعُ لَدَيْهِمْ مَحْكُومًا بِمُقْتَضَى الْحَالِ وَالْقَصْدِيَّةِ الرَّسَالِيَّةِ.

إِنَّ هَذَا الْإِفْتِنَاحَ الْمَنْهَجِيَّ يَبَيِّنُ الْمُتَجَرِّزَ اللَّسَانِيَّ الْعَرَبِيَّ الْحَدِيثَ (مُمَثَّلًا بِنَظَرِيَّةِ هَوَارْد جَايْلز Howard Giles) وَيَبَيِّنُ النَّصَّ الْمُقَدَّسَ، قَدْ أَمَاطَ اللَّثَامَ عَنْ بَلَاغَةِ دِينَامِيكِيَّةٍ تُدِيرُ الْمَسَافَةَ الْاجْتِمَاعِيَّةَ بِدَقَّةٍ مُتَنَاهِيَّةٍ، مِمَّا يَفْتَحُ آفَاقًا جَدِيدَةً لِلْبَاحِثِينَ فِي إِعَادَةِ قِرَاءَةِ النُّصُوصِ الثَّرَائِيَّةِ وَالذِّنِّيَّةِ بِمَنْظُورِ نَفْسِيٍّ وَلِسَانِيٍّ مُعَاَصِرٍ.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

1. أ. د. أحمد بن محمد الخراط، أبو بلال. (١٤٢٦ هـ). المجتبى من مشكل إعراب القرآن. المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.
2. أبو الحسن عبد الغافر بن إسماعيل الفارسي (٤٥١ - ٥٢٩ هـ). (١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢ م). مجمع الغرائب ومنبع الرغائب. الكويت: دار لطائف للنشر والتوزيع.
3. أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري. (١٣٣٤ هـ). الجامع الصحيح «صحيح مسلم». تركيا: دار الطباعة العامة.
4. أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القنوجي (ت ١٣٠٧ هـ). (١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م). فتح البيان في مقاصد القرآن. صيدا - بيروت: المكتبة العصرية للطباعة والنشر.

5. أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي (ت ٨٠٦هـ). (١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م). المغني عن حمل الأسفار في الأسفار، في تخريج ما في الإحياء من الأخبار (مطبوع بهامش إحياء علوم الدين). بيروت - لبنان: دار ابن حزم.
6. أبو حفص عمر بن علي بن عادل الدمشقي (ت بعد ٨٨٠ هـ). (١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م). اللباب في علوم الكتاب. بيروت - لبنان: دار الكتب العلمية.
7. أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي (ت 279هـ). (١٩٩٦ م). الجامع الكبير (سنن الترمذي). بيروت: دار الغرب الإسلامي.
8. أبو محمد حسن بن علي بن سليمان البدر الفيومي القاهري (٨٠٤ - ٨٧٠ هـ). (١٤٣٩ هـ - ٢٠١٨ م). فتح القريب المجيب على الترغيب والترهيب للإمام المنذري (ت ٦٥٦ هـ). الرياض: مكتبة دار السلام.
9. أحمد محمد عبد الخالق. (1993). أصول الصحة النفسية. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.
10. أحمد مطلوب أحمد الناصري الصيادي الرفاعي. (١٩٨٠ م). أساليب بلاغية، الفصاحة - البلاغة - المعاني. الكويت: وكالة المطبوعات.
11. تر، صابر حباشة. (2007م). التداولية من أوستين إلى غوفمان. سوريا: الحوار للنشر والتوزيع.
12. جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن حسن بن عبد الهادي الحنبلي الدمشقي الصالحي المعروف بـ «ابن المبرد» (ت ٩٠٩ هـ). (١٤١١ هـ - ١٩٩١ م). الدر النقي في شرح ألفاظ الخرقى. جدة - السعودية: دار المجتمع للنشر والتوزيع.
13. حسين مفتاح بو نصيرة. (2009). التكيف الاجتماعي وأثره على التحصيل العلمي. جامعة الفاتح، طرابلس: غير منشورة (رسالة ماجستير)، كلية الآداب.
14. حمود بن عبد الله بن حمود بن عبد الرحمن التويجري (ت ١٤١٣ هـ). (بلا تاريخ). القول المحرر في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. الرياض/ السعودية: مؤسسة النور للطباعة والتجليد.
15. سيد خير الله. (1973). العلاقة بين التوافق النفسي لتحصيل الدراسي لدى تلاميذ المرحلة الابتدائية في القرية والمدينة. القاهرة: علم الكتاب.
16. شمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي (المتوفى: ١١٨٨ هـ). (١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م). غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب (المجلد 2). مصر: مؤسسة قرطبة.
17. ضياء الدين بن الأثير، نصر الله بن محمد (ت ٦٣٧ هـ). (بلا تاريخ). المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. الفجالة - القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
18. عاطف محمد غيث. (1995). علم الاجتماع. القاهرة: دار المعرفة الجامعية.
19. عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (ت ٢٥٥ هـ). (١٤٢٣ هـ). البيان والتبيين. بيروت: دار ومكتبة الهلال.
20. محمد الطاهر ابن عاشور. (١٩٨٤ هـ). التحرير والتنوير. تونس: الدار التونسية للنشر.

21. محمد الهلال. (١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢ م). تفسير القرآن الثري الجامع. دمشق - سوريا: (دار المعراج، ودار جوامع الكلم).
22. محمد بن أحمد بن الأزهرى الهروي، أبو منصور (ت ٣٧٠ هـ). (٢٠٠١ م). تهذيب اللغة. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
23. مصطفى فهمي. (1963). الصحة النفسية. القاهرة: دار الثقافة العربية.
24. هوارد جايلز، سكود ريد، جيك هارود. (بلا تاريخ). ديناميكيات التواصل بين المجموعات. نيويورك: مكتبة الكونكرس.
25. زينب رعد احمد جاسم ا. ., & جميل بدوي حمد الزهيري أ. . . (2023). توظيف الأساليب اللغوية في الترغيب والترهيب. لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية, 15(4), 241-259.
<https://doi.org/10.31185/lark.Vol3.Iss51.3110>

Sources and reference

The Holy Qur'an

- 1- Al-Kharat, A. M. (2005). Al-Mujtaba min Mushkil I'rab al-Qur'an (The Selected from the Complex Syntax of the Qur'an), Medina: King Fahd Glorious Qur'an Printing Complex.
- 2- Al-Farsi, A. H. (2022). Majma' al-Ghara'ib wa Manba' al-Ragha'ib (The Collection of Curiosities and the Source of Desires). Kuwait: Dar Lata'if for Publishing and Distribution.
- 3- Al-Naysaburi, M. H. (1915). Al-Jami' al-Sahih (Sahih Muslim) (The Authentic Collection). Turkey: Dar al-Tiba'ah al-Amirah.
- 4- Al-Qannawji, M. S. (1992). Fath al-Bayan fi Maqasid al-Qur'an (The Clarification of the Objectives of the Qur'an). Sidon - Beirut: Al-Maktabah al-Asriyyah for Printing and Publishing.
- 5- Al-Iraqi, Z. A. (2005). Al-Mughni 'an Haml al-Asfar fi al-Asfar, fi Takhrij ma fi al-Ihya min al-Akhbar (The Sufficer from Carrying Books on Journeys, in the Verification of

the Narrations in the Ihya). Printed in the margins of Ihya 'Ulum al-Din. Beirut: Dar Ibn Hazm.

- 6- Al-Dimashqi, O. A. (1998). *Al-Lubab fi 'Ulum al-Kitab* (The Essence of the Sciences of the Book). Beirut: Dar al-Kutub al-Ilmiyyah.
- 7- Al-Tirmidhi, M. I. (1996). *Al-Jami' al-Kabir* (Sunan al-Tirmidhi) (The Great Collection). Beirut: Dar al-Gharb al-Islami.
- 8- Al-Fayoumi, H. A. (2018). *Fath al-Qarib al-Mujib 'ala al-Targhib wa al-Tarhib lil-Imam al-Mundhiri* (The Near Respondent's Opening upon the Encouragement and Deterrence of Imam Al-Mundhiri). Riyadh: Dar Al-Salam Library.
- 9- Abdel-Khalek, A. M. (1993). *Usul al-Sihhah al-Nafsiyyah* (Principles of Mental Health). Alexandria: Dar al-Ma'rifah al-Jami'iyyah.
- 10- Al-Nasiri, A. M. (1980). *Asalib Balaghiyyah: Al-Fasahah - Al-Balaghah - Al-Ma'ani* (Rhetorical Methods: Eloquence - Rhetoric - Semantics). Kuwait: Wekalat al-Matboot.
- 11- Habacha, S. (2007). *Al-Tadawuliyyah min Austin ila Goffman* (Pragmatics from Austin to Goffman). Syria: Al-Hiwar for Publishing and Distribution.
- 12- Ibn al-Mubarrad, Y. H. (1991). *Al-Durr al-Naqi fi Sharh Alfaz al-Khiraqi* (The Pure Pearl in Explaining the Terms of Al-Khiraqi). Jeddah: Dar al-Mujtama' for Publishing and Distribution.
- 13- Bu Naseera, H. M. (2009). *Al-Takyif al-Ijtima'i wa Atharuhu 'ala al-Tahsil al-Ilmi* (Social Adaptation and its Impact on Academic Achievement) [Unpublished Master's thesis]. Faculty of Arts, Al-Fateh University, Tripoli.
- 14- Al-Tuwaijri, H. A. (n.d.). *Al-Qawl al-Muharrar fi al-Amr bil-Ma'ruf wa al-Nahy 'an al-Munkar* (The Liberated Statement on Enjoining Good and Forbidding Evil). Riyadh: Al-Noor Foundation for Printing and Binding.
- 15- Khairallah, S. (1973). *Al-Alaqah bayna al-Tawafuq al-Nafsi wa al-Tahsil al-Dirasi lada Talamidh al-Marhalah al-Ibtida'iyyah fi al-Qaryah wa al-Madinah* (The Relationship between Psychological Adjustment and Academic Achievement among Primary School Students in Villages and Cities). Cairo: 'Alm al-Kitab.

- 16- Al-Safarini, M. A. (1993). Ghidha' al-Albab fi Sharh Manzumat al-Adab (Nourishment of the Minds in Explaining the Poem of Manners) (Vol. 2). Egypt: Qurtuba Foundation.
- 17- Ibn al-Athir, N. M. (n.d.). Al-Mathal al-Sa'ir fi Adab al-Katib wa al-Sha'ir (The Current Model in the Lore of the Writer and Poet). Faggala, Cairo: Dar Nahdat Misr for Printing, Publishing, and Distribution.
- 18- Ghaith, A. M. (1995). Ilm al-Ijtima' (Sociology). Cairo: Dar al-Ma'rifah al-Jami'iyyah19.
- 19- Al-Jahiz, A. O. (2002). Al-Bayan wa al-Tabyiin (Elegance of Expression and Clarity of Exposition). Beirut: Dar wa Maktabat al-Hilal.
- 20- Ibn Ashour, M. T. (1984). Al-Tahrir wa al-Tanwir (The Verification and Enlightenment). Tunis: Dar Tunisiya lil-Nashr.
- 21- Al-Hilal, M. (2022). Tafsir al-Qur'an al-Thari al-Jami' (The Rich Comprehensive Exegesis of the Qur'an). Damascus: Dar al-Mi'raj & Dar Jawami' al-Kalim.
- 22- Al-Harawi, M. A. (2001). Tahdhib al-Lughah (The Refinement of Language). Beirut: Dar Ihya al-Turath al-Arabi.
- 23- Fahmy, M. (1963). Al-Sihhah al-Nafsiyyah (Mental Health). Cairo: Dar al-Thaqafah al-Arabiyyah.
- 24- Giles, H., Reid, S., & Harwood, J. (n.d.). Dynamics of Intergroup Communication. New York: Library of Congress.
- 25- Jassim, Z. R. A., & Al-Zuhairi, J. B. H. (2023). Employing linguistic methods in encouragement and deterrence. Lark Journal for Philosophy, Linguistics and Social Sciences, 15(4), 241-259. <https://doi.org/10.31185/lark.Vol3.Iss51.3110>